الواقع والتطلع

أديب اللجمي

ليست الثورة العربية المعاصرة وليدة السنوات الخمسينات والستينات وحسب ، بل هي قد بدأت مع بداية هذا القرن ، وأخذت تمتد في مجالي العمق والشمول ، حتى بلغت الشكل الراهن الذي نراه في بداية هذه السنوات السبعينات .

وما كنا لنسمي ظاهرات التحول الكبرى التي حدثت وما تزال تحدث في الوطن العربي ، ثورة عربية ، لو لم يكن هذا التحول نتيجة لكفاح شعبي دائم ، مكلف ومستمر ، يستهدف احداث التحولات لصلحة الشعب تحقيقاً للأهداف التي ينشدها الشعب .

فالثورة العربية المعاصرة هي ، بحكم هويتها وتعريفها ، ثورة شعبية ؛ انها لاتستحق اسم « الثورة » إلا لهذه الصفة وحدها . من هنا فان طموحها يستهدف في طليعة مايستهدف :

– تحرير الوطن العربي ، أي تصفية كل وجود لاستعمار قديم أوجديد فيه ، واستعادة ما اغتصب من أبنائه من حقوق وأرض .

– ازالة التجزئة التي فُرضت على الشعب الواحد ، من الخارج لأغراض امبريالية صرفة ، ومن الداخل لخدمة الرجعية العربية والإقليمية الضيقة ، وتقويض هذه التجزئة وإقامة دولة الوحدة ، الدولة العربية الواحدة .

– إقامة مجتمع اشتراكي ، أيْ مجتمع عربي ينتفي منه الاستغلال ويتحقق فيه الرخاء للفرد والجماعة ، ويحقق فيه ابناؤه ، بجهدهم ودأبهم ، التقدم اللازم لمواكبة حضارة العصر ، لا في مستوى الاستهلاك وحسب ، بل في مستوى الانتاج والابداع بصورة خاصة .

فالكفاح الثوري العربي ، إذ حقق في مسيرته ضروباً كثيرة من النصر ، مازال يتوقع معوقات شتى مقبلة ، ومناهضات متعددة لتقدمه ؛ ولن تكون الطريق أمامه ممهدة ولا قصيرة ؛ ولكنّ ثمة آمالاً عريضة وعميقة ، بعضها مستمدّة من نجاحه في الماضي ، وبعضها ضاربة جذورها في كيانه وفي ايمانه بهويته وأصالته ، تجعل ثقته بالنصر الحاسم حقيقة لا تقبل الشك ، وإن يكن منال النصر طويلاً .

فبين الواقع والتطلع ، تتحرك الثورة العربية . وهي في هذه الحركة ، تجتاز أزمات ثقيلة ، وتمر في امتحانات قاسية ، وتعاني من تبديد الجهود ، بل ومن وقوف فريق من أبنائها في وجهها ، مما قد يبدو مبرراً لقنوطها وتوقفها . ولقد توقع كثيرون لها أن تنحسر ، و « تكفّر » مما سموه « بالمغامرة » التي قامت بها . ولو أن مثل هذا الرجاء صدر عن الأمبريالية وحدها ، لكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ ولكنه كان وما يزال حلم بعض الطبقات الحاكمة في الوطن العربي . من هنا كان مجرد إصرار الشعب العربي على مواصلة مسيرة هذه الثورة دليلاً رائعاً على أصالتها وأصالته معاً ، وعلى ايمانه بنجاحها النهائي .

على ان الاكتفاء بالصيغ العامة لايقدم الصورة المشخصة عن هذا النضال الشعبي ؛ فهو يتحرك ، تارة في دروب ضيقة وشائكة ، وطوراً في ظروف مواتية ومناسبة . وقد يكون من الخير محاولة رصده وهو في ابان حركته المتقدمة ، المتقهقرة ، في حركته بين الواقع والتطلع . وبودنا أن نأخذ ثلاثة موضوعات من أمهات مجالات هذا الكفاح الثوري ، وهي :

– الثورة العربية في واقعها وتطلعها من أجل الوحدة
– الثورة العربية في واقعها وتطلعها من أجل الاشتراكية
– الثورة العربية في واقعها وتطلعها من أجل التحرر

آ – في الوحدة

خلال السنوات الثلاثين الماضية ، كان شعار « الوحدة العربية » يعلو على أيّ شعار آخر لدى الشعب العربي . وفي سبيل تحقيقه قامت منظمات سياسية ، يأتي في طليعتها حزب البعث العربي الاشتراكي . ان هذا الحزب هو أول منظمة سياسية شعبية نادت بأن العرب « أمة واحدة ذات رسالة خالدة » ، وهو أول منظمة سياسية ، ضمت منذ السنوات الأربعينات جماهير شعبية – من الفلاحين والمثقفين بصورة خاصة – كانت متأهبة فعلاً للنضال من أجل الوحدة . وانتشر هذا الحزب في عدة أقطار من الوطن العربي ، ولقيت الدعوة الى الوحدة مناخاً مواتياً في كل بلد عربي . وكان معنى ذلك ، ولا يزال في تقديرنا ، أن ايمان العرب بوحدتهم ينبع من أعماق هويتهم ، إذ أن ماواجهه العمل الوحدوي من متاعب ومؤامرات – وهي كبيرة وشرسة – لم يثن هذا الشعب عن الاستمرار في بذل المزيد من الجهد والجهاد لتحقيق وحدة يعتبرها « عودة الأمور الى نصابها الطبيعي » .

وبالرغم مما بذلته الرجعية العربية من إعاقة النضال الوحدوي ، متفاعلة في ذلك مع مخططات الغرب الامبريالي ، فلقد تمكن هذا النضال من أن يحرز

ثلاثة انتصارات ، هي بحد ذاتها برهان على أن الوحدة العربية ليست حلماً ولا مجرد شعار: فقد انتصر هذا النضال ، وأقام الوحدة بين مصر وسورية سنة ١٩٥٨ ؛ ثم انتصر ، بعد انتكاسة ، فتجلى في ميثاق طرابلس الثلاثي بين مصر وليبيا والسودان. ولم يكن لهذا الميثاق أن يقوم أصلاً، لولا أن الثورة التي قامت في كل من السودان وليبيا كانت تستهدف بالضبط اعادة ربط شعبي هذين القطرين بالشعب العربي في مصر وبلاد المغرب وسائر المشرق العربي . ثم انتصر أيضاً في انضمام القطر السوري الى ميثاق طرابلس في السنة الماضية. وقد تكون هذه السنة سنة وضع الصيغ العملية للاتحاد الرباعي، وبداية تطبيق لهذه الصيغ تمهيداً لخطوات مقبلة اكثر تقدماً واقتراباً من تحقيق الدولة الواحدة .

وظلت ، مع ذلك ، صورة الاصرار الشعبي ، الذي سبق ورافق قيام وحدة سنة ١٩٥٨ ، حية في نفوس الجماهير، فقد قامت الوحدة بين مصر وسورية في ظروف غاية في القسوة والصعوبة . كانت الامبريالية قد اعتدت على مصر سنة ١٩٥٦ ، وطوقت الحركة التحررية في الأردن (سنة ١٩٥٧) وزادت من مناوأتها للنضال الوحدوي في سورية. ورغم ذلك قبلت مصر وسورية التحدي والمواجهة، وتمكنتا في ١ شباط (فبراير) ١٩٥٨ من إصدار الاعلان الشهير الذي جاء فيه: «وتذاكر المجتمعون ماقرره كل من مجلس الأمة المصري، ومجلس النواب السوري، من الموافقة الاجماعية على قيام الوحدة بين البلدين ، كخطوة اولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة، وانتهوا الى أن هذه الوحدة - التي هي ثمرة القومية العربية - هي طريق العرب الى الحرية والسيادة ، وسبيل من سبل الانسانية للتعاون والسلام .. لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام، وايمانهم الكامل ، وثقتهم العميقة، في وجوب توحيد سورية ومصر في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة». وحين وقف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يخطب في مجلس الأمة المصري في ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٨ ، كانت ملايين المواطنين العرب تستمع اليه :

« لقد كان الكفاح من اجل الوحدة هو نفسه الكفاح من اجل القوة ، من اجل الحياة . ولقد كان التلازم بين القوة والوحدة ابرز معالم تاريخ أمتنا، فما من مرة توافرت القوة إلا وكانت الوحدة نتيجة طبيعية لها .. على أنني أرى من واجبي في هذه اللحظات أن أصارحكم وشعب الجمهورية العربية المتحدة كله معكم ، أن الطريق الذي نقبل عليه طويل وشاق ؛ ان رحلتنا عليـــه ليست نزهة نروح بها عن النفس ، وانما رحلتنا عليه مشاق ومتاعب و كفاح وجهـــاد . ولكن هذه كلها، هي الثمن العادل للأمل الكبير الذي نسعى اليه .. لقد أكد شعب سورية بتجارب الايام ، تجربة بعد تجربة ، أنه طليعة القومية العربية وانه رأس الحربة في اندفاعها وانه الحارس الأمين لتراثها المجيد .. لقد بزغ أمل جديد على أفق هذا الشرق : ان دولة جديدة تنبعث في قلبه . لقد قـامت دولة كبرى في هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية ، دولة تحمي ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوّي ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، ولا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العـــدل ، تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ، ولمن حولها ، وللبشر جميعاً بقدر ماتحمل وتطيق » .

ولم تتمكن هذه الوحدة الثنائية من أن تصمد في وجه خصومها في داخل الوطن العربي وخارجه ، فاغتيلت في الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ .

وفي تقديرنا أن عوامـــل ثلاثة طعنت وحدة سنة ١٩٥٨ : الاستعمار واسرائيل معاً – الرجعية العربية – فقدان ثقة القوى التقدمية بالشعب على أنـه هو درع الثورة ، وهو حاميها ، بل هو المنجز لأهدافها ؛ فراحت هذه القوى تحكم بمعزل عن الشعب ، بعد أن اعتمدت ، بالوصول الى الحكم ، على قوة الشعب .

* * *

في نطاق هذا النضال الوحدوي ، طرح اكثر من شكل له : أتكون الوحدة وحدة حكومات أم وحدة شعوب ؟ أتكون وحدة شعوب أم وحدة قوى تقدمية عربية ؟ أتكون وحدة القوى التقدمية سابقة زمنياً على وحدة المنظات والهيئات الشعبية في الوطن العربي ؟

والواقع أن هذه التساؤلات ، رغم كونها مازال مطروحة في صيغة أو أخرى ، تخفي وراءها تساؤلاً أكبر وأشمل : من يصنع الوحدة العربية ؟ ولمن تقوم الوحدة ؟

ان صاحب المصلحة المباشرة في الوحدة ، انما هم الكادحون من شعبنا العربي ، هم جماهير هذا الشعب بأعرض وأوسع معاني الكلمة . هؤلاء هم الذين يصنعون الثورة ، وهم الذين يقدمون التضحيات في سبيلها ؛ والثورة والوحدة العربية صنوان بل مترادفان ، فما من كفاح وحدوي إلا وهو ثوري بجوهره ، وما من كفاح ثوري في الوطن العربي إلا ويستهدف أول مايستهدف تحقيق الوحدة.

من هنا فان معيار أية حركة سياسية في الوطن العربي ، انما يستند على مقدار كفاحها الوحدوي . ولا يكافح في سبيل الوحدة إلا الحركات التقدمية ، لأن التقدم هو بحكم التعريف تحرر : تحرر من معوقات التخلف ، وتحرر من تسلط الدخيل والغاصب والمستغل .

ان قيام جبهة تقدمية في القطر العربي السوري ، وفي هذه الظروف بالذات ، هو انعطاف هام في نضال حزب البعث العربي الاشتراكي ، وموقف جديد بالنسبة للمنظات التقدمية الوحدوية في سورية . وإذا أمكن لهذه الجبهة أن تؤول الى قيام « التنظيم السياسي التقدمي الموحد » على حد تعبير الفريق حافظ الأسد ، فمعنى ذلك أن كفاح هذا القطر سيدخل حتماً مرحلة جديدة تتسم بمزيد من الجدوى ، ومزيد من الجدية ، ومزيد من الارتباط بين الطلائع التقدمية والقوى الشعبية في القاعدة .

فليس النضال الوحدوي إذن رهناً بنضال القوى التقدمية في سبيله وحسب، بل هو، في تقديرنا، رهن أولاً بالتقاء هذه القوى فيما بينها ثم انصهارها فيما بعد في تنظيم واحد، كما هو رهن ثانياً بارتباط هذه القوى ارتباطاً عضوياً بالقاعدة الشعبية.

ان الحزب التقدمي في الوطن العربي يجب أن يظل أبداً حزب الثورة، لا حزب السلطة، حتى حين تؤول اليه السلطة، فهذه الأخيرة وسيلة، لا غاية بذاتها. ان استلام السلطة، إذا لم يكن بقصد المساعدة على إذكاء الثورة وعلى تحقيق إنجازات ثورية جذرية، سيكون حتماً معوقاً للنضال الشعبي، إن لم نقل مجهضاً له

ب — في الاشتراكية

لئن استهدف الكفاح من أجل الاشتراكية وضع حد للاستغلال، وجعل قوى الإنتاج ووسائله ملكاً للشعب، والتخطيط العلمي لإقامة الاقتصاد الحديث، وتوفير العمل والعيش الكريم لكل مواطن، فإن كل هذا مشروط أولاً وآخراً، على صعيد الوطن العربي، بأمرين معاً: تكوين المواطن الاشتراكي، وتحقيق التحولات الاشتراكية في نطاق الوحدة.

وحتى لو سلمنا بأن الأقطار العربية التقدمية جادة فعلاً في التحويلات الاشتراكية، فان جدوى هذه تظل ناقصة جداً بحكم التجزئة وفقدان التكامل الاقتصادي بينها. ان إقامة اقتصاد وانتاج اشتراكيين يتطلبان توحيد الطاقات والخامات والثروات. من هنا فإن مايواجه التخطيط الاشتراكي من عثرات وإشكالات في واقعه الراهن، يرتد جزئياً الى فقدان التخطيط الموحد، أو التخطيط الواحد.

وليس هـــذا وحده فقط . ان تحقيق الاشتراكية يتطلب وجود اشتراكيين . وما من شك في أن الأجهزة المكلفة بهذه الانجـــازات في الوطن العربي ، ماتزال متخلفة كثيراً عن النهوض بها ، بل إن كثيراً منها مناوىء لكل خطوة اشتراكية . يدل على ذلك هذا الاخطبوط الروتيني المخيف الذي نسميه « جهاز الدولة » والذي يحمل في طياته من مفارقات التخلف والدجل والتسكع والتحلل من المسؤولية ، بل والخوف منها ، مايجعل قسماً لابأس به من الطاقات الموجهة الى التحويل الاشتراكي تضيع هدراً أو تعطي مردوداً هزيلا . هذا مع العلم أن كل جهد ، في منطق الجهاد الاشتراكي ، ينبغي ألا يفرط به ، بل يجب الإفادة منه الى أقصى الحدود ، لأن التبديد ، بحكم التعريف ، هو من خصائص الاستغلال أي من خصائص الرأسمالية لا الاشتراكيـــة . وهنا ، في هذا المجال أيضاً ، نلاحظ البون الصارخ بين الواقع والتطلع ؛ ويؤدي هذا بدوره الى قيام التفاوت بين الغاية والوسيلة ؛ فلئن كان الهدف اشتراكيـــاً، فطبيعي أن تبتدع الوسائل المواتية له . أما أن نتصور قيام اشتراكية من دون اشتراكيين ، أو قيامها بأيدي أعدائها ، فتلك هي السذاجة .

* * *

م ـــ في التحرر

ليس ممكناً تطويق هـذا الموضوع في صفحات قليلة . فالكفاح العربي التحرري ليس وليد الأمس ، ولا وحيد الاتجاه ، ولا مقتصراً على ميدان واحد . انه كبير متنوع . وسنكتفي هنا لإبراز حركته في مجالي الواقع والتطلع ، أن نأخذ الموضوع الفلسطيني وحده .

ان التحرر العربي ، في الموضوع الفلسطيني ، يستهدف تحرير مااغتصبته إسرائيل وإعادة الحق العربي إلى أهله الشرعيين . في سبيل ذلك لم يفتأ الشعب العربي يطالب منذ حوالي ربع قرن بتعبئة كل شيء من أجل المعركة : الطاقات

البشرية ، والموارد الاقتصادية . ومع ذلك فلقد ظل أبناء فلسطين عشرين سنة ، بعد قيام إسرائيل ، في وضع لاجئين وحسب ، لايراد لهم ان يمسكوا بقضيتهم بأنفسهم ، وأن يحشدوا لها قوامهم على الأقل .

وحين تمكنت الثورة الفلسطينية من أن تصبح ثورة مسلحة ، وان تستثير اعجاب الناس وتأييد الرأي العام العالمي ، بوصفها صاحبة الحق الشرعي في استعادة حقوق الفلسطينيين ، لم تكن اسرائيل هي التي واجهت وحدها هذه الثورة ، بل ثمة انظمة عربية بالذات ، أحست على مصيرها من خطر الثورة الفلسطينية التحررية مما أحست به اسرائيل نفسها ، فبادرت بحماسة تفوق حماسة اسرائيل ، الى الغدر بهذه الثورة وتسليط المدافع والقنابل والرصاص على جيش التحرير الفلسطيني ، وهي ماتزال تفعل ذلك ، دون أن تصل الى ما تبغي من تصفية هذه الثورة كلياً . في البحث الذي القاه جورج كوت في ندوة فلسطين العالمية الثانية (عقدت في الكويت في الفترة من ١٣ - ١٧ شباط « فبراير » ١٩٧١) قال هذا الباحث : « على العالم أن يدرك أن الثورة الفلسطينية هي من صنع جيل جديد ، وأن حركة التحرير هذه منبثقة من مخيمات اللاجئين الذين خابت آمالهم في كل الوعود المقطوعة لهم . ومن هنا أدرك الفلسطينيون أن جميع القوى الموجودة في المنطقة تناصبهم العداء ، وأن تحقيق حريتهم ، واسترداد ارضهم ، يتطلبان ضرورة انتقاء قادتهم من بين ظهرانيهم . »

وفي اعتقادي أن هذا هو شعور جميع الفدائيين تقريباً : الثورة الفلسطينية لاتواجه عدواً اسرائيلياً وحسب ، بل تواجه في الوقت ذاته أعداء لها في انظمة حكم عربية . وهذا الضغط الذي فرض عليها طوال اكثر من عشرين سنة ، بقصد اشاعة الدوار في رؤوس ابنائها ومناضليها ، لم يؤد الى النتيجة التي كان يترقبهـــا بعض الحكام العرب ، وحكام اسرائيل . لقد حدث العكس تماماً . ففي فترة تكاد تكون ذروة القنوط انبعث صوت حركة « الأرض » في داخل الأرض المحتلة ، مثلما انبعث صوت « فتح » من خارجها . يقول حبيب قهوجي : « أمام هذا القهر الصهيوني المبرمج ، قهر الأرض والانسان ، وجد العرب انفسهم امام امرين : إما أن يمدوا أعناقهم للجزار ، ويساقوا الى المسلخ دون مقاومة ، وإما

أن يدافعوا عن حقهم في وطنهم وأرضهم و كرامتهم وتراثهم جهد استطاعتهم ، ويضعوا العصا في عجلات العربة الصهيونية ، حتى يعيقوها عن الوصول الى أهدافها العنصرية ، وحتى لا يقال إن العرب في الأرض المحتلة ، فيما بعد ، رضوا بالأمر الواقع وناموا على الضيم .. لقد جربوا اساليب المؤتمرات الشعبية كرد فعل على الفعل ؛ وتجسيداً لهذه المؤتمرات قامت (الجبهة العربية) التي سميت فيما بعـــد (الجبهة الشعبية) ... وأدت الجبهة دوراً ممتازاً في الدفاع عن قضايا المواطنين العرب ، وفي تأصيل جذور الخلايا الأساسية في شتى مراكز الأقلية العربية ، التي انبثقت عنها فيما بعد الحركة القومية ، التي كانت الجواب الأصيل على اضطهاد السلطات واغتصابها للحق العربي في فلسطين ، واعني بذلك (حركة الأرض) التي ضمت جميع العناصر القومية التقدمية في البلاد ... وجاءت تسمية الحركة الوطنية (بحركة الأرض) أصدق تعبير عن هوية تلك الحركة الشخصية والقومية ، على المستوى الفلسطيني وعلى صعيد الامة العربية . فعلى الأرض بمفهوميها الملكية الخاصة ، والوطن ، تدور المعركة بين الحركة الصهيونية وبين الامة العربية ، التي يعتبر الشعب الفلسطيني أحد فصائل صدامها المتقدمة . فالصهيونية تحارب من اجل (اعتاق) الارض – على حسب تعبيرها – من العرب ؛ والشعب الفلسطيني ، والأمة العربية تحارب من أجل تحرير هذه الأرض من مغتصبيها . فتسمية تلك الحركة باسم (الأرض) هو رمز لتمسك الفرد بأرضه ، وتعبير عن تصميمه على الدفاع عن وجوده في وطنه »[1]. وحين اندفعت طلائع « فتح » في أولى عملياتهـــا الفدائية الى داخل الأرض المحتلة ، وذلك في اوائل سنة ١٩٦٥ ، أصدرت قيادتها السياسية بياناً جاء فيه : « مضت ستة عشر عاما ، عاش خلالها شعبنا منعزلاً عن قضيته التي تجمدت في الأمم المتحدة ، بوصفها مشكلة (اللاجئين) ان هذه العملية الفدائية ليست الا بداية حرب تحرير ... ان افضل قوة تقودنا تتمثل في ايماننا بأن هذا هو السبيل الوحيد لاخراج قضيتنا من الحلقة المفرغة التي

---

(١) من بحث السيد حبيب قهوجي المقدم الى ندوة فلسطين العالمية الثانية (في الكويت من ١٣ – ١٧ شباط « فبراير » ١٩٧١) . هذا وستنشر قريبا جميع بحوث هذه الندوة في كتاب .

أخذت تدور فيها ... وبالرغم من التضحيات فان مسيرتنا لن تتوقف قبل أن يرتفع العلم الفلسطيني من جديد فوق أرضنا العزيزة . واننا نعاهد شعوبنا على مواصلة السير على هذا الطريق ، وألا نلقي السلاح الى أن يتم تحقيق النصر . »

في نطاق هذا التطلع ، بل واستناداً اليه ، لم تتمكن المقاومة الفلسطينية من ان توحد فصائلها حتى اليوم . فهي مازالت موزعة في منظمات ، تريد كل منها أن تتمتع بنوع من الاستقلال ، وبنوع من توكيد الذات على حساب دفع المنظمات الأخرى الى الظل . وهنا ايضاً تواجه الثورة الفلسطينية المشكلة ذاتها التي تواجهها القوى الوحدوية . فما كان لأي حكم عربي ان يجرؤ على مجرد الوقوف في وجه الفدائيين الفلسطينيين لو أن فصائلهم ومنظماتهم كانت موحدة . ان الضربات التي ألحقت بهم هي الى حد ما نتيجة تمزقهم . انها المأساة ذاتها مع الكفاح العربي من أجل الوحدة والتحرر . ولئن صح ما قاله أحد المسهمين في الندوة : « ان الهزيمة جزء من النضال الاجتماعي وقيمتها الايجابية تكمن في مدى اسهامها في عملية انضاج الخبرة الثورية » ، فصحيح ايضاً قولنا ان الثورة تستطيع ان تتفادى مسبقاً السير في سبل تؤدي حتماً الى اضعافها ، على هذه النقطة بصورة خاصة ركز لينين كثيراً من اهتمامه وخطبه وتوجيهاته . هناك كلمة شهيرة للفيلسوف البولوني كولاكوسكي : « ان الحركة الثورية لن تحقق اية انتصارات مالم تمر في مرحلة تمنى فيها بهزائم محققة ، ومالم تبدأ نشاطاً ثورياً في الوقت الذي تكون فيه الاوضاع التاريخية ، في فترة ما ، عائقاً يجعل النصر مستحيلاً . » والواقع ان لمعركة التحرر العربية طابعاً من نوع خاص يتجلى في المفارقة التالية : منذ اربعين سنة ، والشعب العربي يستمر منحسراً عن أرضه : حدث هذا بالنسبة للواء الاسكندرون ، ثم بالنسبة لفلسطين ، ثم بالنسبة لنتائج عدوان الخامس من حزيران . واثناء ذلك لم تتوقف الثورة العربية ، ولكنها بدلاً من ان توقف العدوان الامبريالي – الصهيوني على الاقل ، تمهيداً لدحره في مرحلة تالية ، نجدها او نجد طلائعها بالأحرى، تتساءل بينها وبين نفسها، ما اذا كان ممكناً بالفعل دحر الامبريالية وتصفيتها من ارض الوطن . واذا اردنا

مزيداً من الدقة والوضوح ، قلنا ان قيادات الثورة الفلسطينية ، مثل كثير من قيادات الثورة العربية ، تبحث عن « أسلم » السبل « بأقل الأكلاف » لبلوغ كامل الأهداف ، وذلك هو المستحيل بعينه . ان ما تريده الثورة العربية هو بالضبط عكس ما يريده أعداؤها ومناهضوها . وما من قاسم مشترك بين النقيضين . وان اشكال الحكومات القائمة لتمثل في انظمة ذات مصالح ثابتة ، تقاوم بطبيعتها جميع المطالب الثورية وترفض المنطق الثوري ، فالنظام الكائن لا يمكن ان يتجاوب مع الحوافز الثورية الا بطريقتين : اما باخضاعها ، او بايجاد حل وسط معها . فالعامل الرئيسي الذي يقرر استراتيجية النظام ، هو اسلوب العمل الذي يتبناه التطور الثوري . والتعايش بين نظام الحكم السائد وبين الحركة الثورية يصبح ممكناً فقط اذا بقيت الاخيرة ضمن الحدود المعينة التي يسمح بها هذا النظام القائم . وفي مثل هذه الظروف يمكن كبح التناقضات الرئيسية بحيث تبقى كامنة ، ومن هنا تتبع سياسة الحلول الوسط . » .

ثم ان معركة تحرير الأرض الفلسطينية هي بدورها جزء من معركة التحرر العربي الكبرى . يخطىء من يظن أن التحرر العربي ينتهي عند أبواب حيفا ويافا فاسرائيل بوصفها قوة اغتصاب وتوسع ، كانت وما تزال جزءاً من الاستعمار الذي أوقعه الغرب على الشعب العربي . ولكن اغتصاب « صفد » بذاته ليس أكثر هولاً من اغتصاب الغرب لأكثر من خمسمائة مليون طن من البترول العربي كل سنة . بل يمكن القول ببساطة إن ثمة تضامناً بين شكلي الاغتصاب . فالعسكرية الاسرائيلية أقيمت لتحمي هذا الوجود الأمبريالي الذي يزداد عتواً وشراسة [1].

---

(١) ان الولايات المتحدة تستهلك ٣٣ ٪ من بوكسيت العالم كله ، و ٤٠ ٪ مما ينتجه من النيكل و ١٣ ٪ من المنغنيز و ٣٦ ٪ من الكروم و ٢٥ ٪ من النحاس والتونغستين والأميانت و ٤١ ٪ من الحديد والرصاص و ٢٨ ٪ من البوتاس و ٥٠ ٪ من البن و ٥٥ ٪ من البترول ، أي ان أقلية محظوظة لا تكاد تبلغ نسبتها ١/١٧ من سكان الأرض تستهلك نصف المواد الأولية اللازمة للحياة العصرية (ص ٢٩٥) « يشكل الجهاز —

والمجتمع الاسرائيلي كله[1] حتى بطبقاته الكادحة ، هو بحكم تكوينه في خدمة هذه الامبريالية . «إن كل اسرائيلي مرتبط بالجيش قبل الخدمة العسكرية ، وأثناءها وبعدها . وكل مجند مرتبط باحدى وحدات الجيش، ويجب عليه أن يقضي عدة أيام من كل شهر ، ثم شهراً على الأقل من كل سنة في وحدة عسكرية لكي يتقن المهارة على القتال ... ثم إن الاقتصاد الاسرائيلي كله يعمل للحرب . وجاء في النشرة السنوية الرسمية لسنة ١٩٦٨ أن عدد عمال الصناعات الحربية في اسرائيل قد زاد ـ خلال مدة قصيرة ـ بنسبة ٤٠٪ وأن العقود والمشاريع والمشتريات الحربية قد زادت في سنة ١٩٦٨ ثلاث مرات مما كانت في سنة ١٩٦٧» . (من مقال لمعلق وكالة نوفوستي السوفيتية شرايبر) .

من هنا توجب ربط الكفاح الفدائي الفلسطيني ربطاً عضوياً بالكفاح الوحدوي التحرري، مثلما توجب ربط هذا الأخير ربطاً عضوياً بالكفاح التحرري لجميع شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . والواقع ليس كذلك حتى الآن، ففي داخل العمل الفدائي ذاته لايزال ثمة تناقض ، وبين هذا العمل والمنظمات التقدمية العربية الأخرى لم يقم بعد توحيد جدي لتكتيك النضال بل ولاستراتيجيته. والذين يخططون للثورة العربية يقعون في أحيان كثيرة تحت سلطان زحمة الأحداث ، فيخططون لها من موقع « القبول بالأمر الواقع » . وبذلك يقعون

— العسكري للأمبراطورية الأمريكية أقوى مؤسسة اقتصادية في الولايات المتحدة . ان هناك ثروات هائلة في العالم الثالث أوكلت الى هذا الجهاز مهمة السهر عليها ... وميزانية الجهاز العسكري قد بلغت سنة ١٩٦٨ مبلغ ٧٥ مليار دولار . وما من نقطة في العالم الا واقعة تحت حماية هذه الترسانة الضخمة أو تحت تهديدها » (ص ٣٤٢) . من كتاب كلود جوليان — الأمبراطورية الأمريكية — منشورات دار الحقيقة — بيروت ١٩٧٠.

(١) « ان الدولة الاسرائيلية هي دولة رأسمالية في الصميم ، لأن كل قطاع يدر ربحاً هو في أيدي القطاع الخاص : كالمصارف ، والتجارة ، والملكية العقارية في المدن ، والصناعات الخفيفة والحمضيات . وفي الاحصاءات الأخيرة أن ٩٣٪ من المنشآت الصناعية الاسرائيلية هي في أيدي القطاع الخاص » (من كتاب ناتان فاينشتوك Nathan Weinstock — الصهيونية ضد اسرائيل Le Sionisme Contre Israël — منشورات ١٩٦٩ باريس).

ويوقعون الثورة ذاتها في فصام بين الواقع والتطلع ، وكان حرياً بهم أن يحركوها من موقع الواقع في اتجاه التطلع .

بذلك تتحرك الثورة العربية التحررية – مع احترام خصائصها وأهدافها الخاصة بها – مع ثورة شعوب العالم في القارات الثلاث ، باعتبارها جزءاً منها ، ومع الثورة الاشتراكية في العالم كله . لذا فانه ليس كافياً أن نقيم الجبهة التقدمية في داخل كل قطر عربي – وإن يكن قيام هذه شرطاً لازماً لتوحيد النضال العربي – أو بين الأقطار العربية وحدها ، بل ينبغي أن تمتد هذه الجبهة لتصبح جبهة جميع الشعوب المكافحة في سبيل التحرر والاشتراكية والتقدم .

ان هذه هي مهمة الطلائع الثورية في الوطن العربي . فهناك الطلائع الثورية التي تمارس الثورة المباشرة ، وهناك الطلائع المثقفة الثورية التي تخطط للثورة ، وتضع لها أيديولوجيتها . وفي تقديرنا أن ماتفتقر اليه هذه الثورةهو المقوم الفكري . ولا يصنع هذا المقوم الفكري إلا مفكرون عرب ثوريون . ولكن الواقع العربي ينعكس بدوره على المثقفين العرب فيتجلى لديهم تحللاًمن المسؤولية واستسلاماً للسلطة في سبيل الحياة الوادعة ، وانتهازية ثقافية تتحرك في طريق الترف والتخمة كما تتحرك في ضباب التأمل على المشكلات لامعاناتها ، في التأمل على الثورة لا في المشاركة بها . ان معظم المثقفين العرب يشكون أكثر مما يفعلون ، يتذمرون أكثر مما يتقدمون . والثورة ليست بحاجة الى نائحين بل الى مكافحين . ولكنها في الوطن العربي أحوج ماتكون الى « الحامل » الثقافي الفكري . ان ثورة تخلو من المقوم الفكري تصبح غوغائية ، ولكن ثقافة بدورها تخلو من هدفها الثوري ، تصبح تفسخاً وانتهازية وطفيلية ، وتجعل من صاحبها دجالاًيتاجر بالثورة ليعيش من دماء صانعيها . تلك نماذج من مفارقات الثورة والثقافة .

السوق العربية المشتركة

د. طه بالي

الحديث عن السوق العربية المشتركة حديث حلو تشوبه بعض المرارة . فهو حلو لأنه يتناول مؤسسة اقتصادية عربية عزيزة على نفوسنا وضرورة تاريخية لتطور مجتمعنا العربي وتقدمه في العصر الحديث . ولكنها شأن غيرها من المؤسسات الناشئة تناضل وتكافح من أجل البقاء والحياة الأفضل وتعاني ماتعانيه غيرها من صعوبات ومعوقات النمو والتطور .

ولا أريد سرد النصوص والقرارات أو مايمكن ان يعرفه كل واحد او يطلع عليه من احكام السوق العربية وتنظيماتها ، ولكني أطمح في مقالي هذا الى أكثر من ذلك ؛ فسأحاول فيه البحث عما يكمن وراء هذه النصوص والاحكام والتنظيمات من الحقائق لتحليلها ، وعما يخفى فيها من الجوانب لجلائها ، آملا بأن أطرح من خلال ذلك بعض الافكار الجديدة للمناقشة والبحث .

في اعتقادي ان السوق العربية كل لايتجزأ تتكامل وتتفاعل فيها الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتنظيمية ولايمكن فصل بعضها عن بعض كما لايمكن النظر الى السوق العربية من خلال بعض الجوانب وترك البعض الآخر . ولهذا فإن الحديث عنها في رأيي جزء من الحديث عن نضالنا ضد الاستعمار والتجزئة والتخلف ومن اجل القضاء

على الاقطاع والرأسمالية وبناء الوحدة والاشتراكية . بل أقول انه جزء من نضالنا ضد الصهيونية والرجعية وربيبتي الاستعمار، ومن اجل ازالة آثار العدوان وتحرير الارض العربية المحتلة واستعادة حقوق شعب فلسطين المغتصبة بالعودة وتقرير المصير .

فالاستعمار القديم ومن ورائه الاقطاع والرجعية مزق الوطن العربي واقتسمه بين مختلف فصائله ليمعن في استغلال ثرواته ونهب خيراته واعاقة تقدمه ونموه وبناء وحدته وابقائه تحت نير التجزئة والتخلف والاستثمار . هذا الاستعمار الذي اندحر بشكله القديم يحاول ان يعود بثوب حديث وقناع جديد مستأنفاً هجماته ومؤامراته التي لا تقل عنفاً وضراوة عن قبل لاستعادة مواقعه ومحاولة ايقاف عجلة التطور والتاريخ. فبفضل نضال مختلف شعوب العالم ومنها شعبنا العربي وما حققته من انتصارات على الاستعمار والامبريالية العالمية ، سواء منها ما كان في تصفية الانظمة الرجعية والاقطاعية واقامة الانظمة التقدمية والاشتراكية أو في تحرير البلدان المستعمرة في جزء كبير من بلدان آسيا وافريقيا او في الثورات التحررية التي لاتزال تقودها وتفجرها الشعوب البطلة في مختلف انحاء العالم : في فلسطين المحتلة وفي فيتنام وكمبوديا وافريقيا وامريكا الجنوبية. كل هذا قد زعزع اركان الاستعمار كنظام عالمي وزاد في حدة ازمته وعجل في انهياره . ولكن هذا من جهة اخرى زاد في شراسته وضراوته ودفعه وهو في مرحلة الاحتضار للدفاع بوحشية عن وجوده وبقائه وتفادي مصيره المحتوم بأي ثمن ولو أدى ذلك الى ابادة هذه الشعوب وتـدمير الانسانية والحضارة البشرية .

ويتجلى هذا بعد الحرب العالمية الثانية في هجماته ومؤامراته على الوطن العربي . فبعد ان اجليت قواته العسكرية وانحسر ظله الرهيب عن عدد من الاقطار العربية يحاول ان يعود اليها من أضيق النوافذ وأخطر المسالك : فأقام في ربوعنا ربيبته اسرائيل الدولة العنصرية الفاشية وزودها بكل وسائل الدمار والخراب كقاعدة له ينطلق منها في استعادة مواقعنا وحماية مصالحه وايقاف مسيرتنا نحو التحرر والتقدم والتنمية والوحدة ورفع مستوى الحياة لجماهير شعبنا العربي كما يتجلى هذا بوضوح اكثر اذا عرفنا ان هذه المنطقة تنتج حوالي (٣٠٪) من البترول العالمي وتضم في احشائها حوالي (٧٠٪) من احتياطي هذه الثروة ، بالاضافة الى الثروات الاخرى والاهمية الاستراتيجية والحيوية التي تمثلها بالنسبة للامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة والتي تجعلها باستمرار موضع الاطماع والهجمات .

فاستثمارات الولايات المتحدة منتشرة فيها طولا وعرضاً وتعتبر اكبر واوسع

استثمارات أجنبية في المنطقة العربية ، فهي تبلغ في مجال البترول وحده (٢) مليار دولار نصفها موظف في السعودية ،أي مليار دولار ، وفي ليبيا ٥٠٠ مليون وهي تملك حوالي ٦٠٪ من البترول العربي في الشرق الاوسط ، و ٧٠٪ في شمالي افريقيا. وقد حصلت في عام ١٩٦٨ من البترول وحده على ارباح قدرها ١٣٠٠ مليون دولار (أي مايعادل ميزانية الخطة الخمسية الثانية لدينا) . وان صادراتها الى المنطقة التي لاتزال سوقاً لها تحقق فائضاً بلغ (٦٠٠) مليون دولار ؛ أي أن ميزانها التجاري مع العالم العربي رابح دائماً لها وخاسر لنا بما يفوق (٥٠٠) مليون دولار سنويا ؛ إذ بلغت مستوردات العالم العربي منها في عام ١٩٦٨ حوالي ٧٩٠ مليون دولار بينما لم تتجاوز صادراته اليها سوى ٢٣٨ مليون دولار أي بعجز قدره ٥٥٣ مليون دولار لصالح الولايات المتحدة .

ويضاف الى هذا كله الأموال العربية المودعة في بنوك الولايات المتحدة (٦٠٠) مليون دولار حسب التقدير الاميركي وحوالي (١٢٠٠) مليون دولار حسب تقدير الخبير الاقتصادي العربي برهان الدجاني. والى جانب الاستثمارات الاميركية في البترول ، هناك رؤوس أموال أميركية موظفة في بعض المصارف وفي صناعات عديدة كالنسيج في السودان والتعدين في المغرب . ففي السودان يصل الرأسمال الاجنبي المستثمر في الصناعة الى (١٥) مليون جنيه سوداني تمثل ٧٩٪ من مجموع الاستثمارات الصناعية ومصنع النسيج السوداني الاميركي والبالغ رأس ماله وحده ٦,٥ مليون جنيه موزعة على الشكل الآتي :

١٠ مليون دولار لاميركا بفائدة قدرها ٥,٥٪ لمدة ١٨ سنة
٢,٥ مليون لاحتكار بريطاني
٢,٥ مليون لمؤسسة أجنبية أخرى

وفي المغرب حيث تسيطر جماعتا روتشيلد الافرنسية ومورغان الاميركية على احتكارات مناجم زليخة الذي يعمل أساساً في الزنك ، بينما تستغلان مناجم القصدير والمنغنيز والحديد والكوبالت. وللرأسمال الاميركي نفوذ بارز في شركة شمالي افريقيا للتصدير التي تكونت بعد الحرب، حين دخلت استندارد أويل ميدان استخراج البترول هناك، وفي لبنان وحده (٧٠) سبعون شركة اميركية تعمل بالتجارة والصناعة والمال . واعتقد ان هذا كاف ليفسر لنا المحاولات والهجمات التي تقوم بها الامبريالية العالمية الجديدة للحفاظ على هذه المصالح ودفع ما يحيط بها من اخطار من جراء حركة التحرر الوطني العربي . فبعد ان كان الاستعمار القديم يعتمد في الماضي على احتلاله العسكري للبلدان النامية

المستعمرة وعلى دعم الانظمة الرجعية والاقطاعية فيها ، اصبح الآن وبعد سقوط هذه الانظمة محرجاً وبحاجة الى وسائل جديدة يواجه ويضرب بها حركة التحرير الوطني العربية وتصاعدها وما حققته من تحولات تقدمية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فالاصلاح الزراعي وتأميم القسم الاكبر من الصناعات القائمة ووسائل الانتاج واقامة السدود ومحطات الكهرباء والصناعات الجديدة والاساسية وتنفيذ المشاريع الانمائية واستثمار الثروات البترولية والمعدنية الاخرى وطنياً وبعيداً عن سلطة وتدخل الاحتكارات الامبريالية وتنمية الطاقات الدفاعية والقتالية فيها كل هذا قد اضعف من مواقع الامبريالية العالمية والرجعية في المنطقة وساعد على توفير الشروط وخلق الظروف المواتية لاقامة الوحدة والسير نحو الاشتراكية .

ففي هذا الاطار يجب ان نطرح البحث عن السوق العربية كمؤسسة من مؤسسات التنمية والوحدة وكأداة فعالة من ادوات النضال العربي من اجل تحقيق وحدته وتقدمه والدفاع عن وجوده . ومن المتعذر علينا في اعتقادي أن نفهم حقيقة السوق العربية او تقيمها تقيما صحيحاً بمعزل عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشها ويعيشها الوطن العربي وعن الحقائق والمقومات التاريخية والموضوعية للشعب العربي . ان اي اطار آخر للبحث قد يسميه البعض فنياً او محايداً او مستقلا لن يتيح لنا اطلاقاً التعرف على حقيقتها ولن يمكننا من معالجة مشاكلها وقضاياها معالجة صحيحة بناءة . وان كل ما يقال عن الصعوبات والعقبات المختلفة التي واجهت السوق العربية او لاتزال تواجهها وتحول دون ادائها لمهامها في ارساء قواعد الوحدة الاقتصادية : كالظروف الخاصة او المحلية للاقطار العربية سواء منها الأعضاء او غير الاعضاء في السوق ، او مايتغنى به البعض عن الواقعية والحكمة والتأني في الخطوات والتدابير ... الى آخر ما هنالك من نظريات رومانتيكية وآراء منمقة على ما يبدو عليها من مسحة من وجاهة ومنطق ظاهريين ، لاتصيب برأيي كبد الحقيقة وانما تحوم حولها احياناً وتجانبها احياناً اخرى .

ان بناء وحدتنا الاقتصادية مرتبط ارتباطاً وثيقاً وعضوياً بتحررنا الوطني والاجتماعي والاقتصادي . وان نضالنا ضد الاستعمار والصهيونية وتصفية علاقات الانتاج الاقطاعية والرأسمالية ، واعتمادنا على الجماهير الشعبية هو السبيل المضمون الامين لاقامتها . ومن جهة اخرى فان هذه الوحدة هي دعامة اساسية للبناء الاشتراكي وتطوير قوى الانتاج والقضاء على التخلف والتجزئة وتحقيق تنمية متناسقة تزيد في دخلنا القومي وترفع من مستوى حياة جماهيرنا وتوطد استقلالنا وتحررنا الاقتصادي والسياسي وتدعم مكانتنا وعلاقاتنا مع العالم الخارجي .

وتأسيساً على هذا سوف نتناول البحث عن السوق العربية المشتركة من خلال :

١ – العوامل الاجتماعية والسياسية .
٢ – المهام والاسس والوسائل .
٣ – التطبيق والنتائج العملية .
٤ – الخاتمة .

١ ـــ العوامل الاجتماعية والسياسية :

اذا كانت السوق العربية المشتركة مؤسسة اقتصادية تقدمية تهدف الى اقامة الوحدة الاقتصادية ، فان كلمة السوق بحد ذاتها ومفهومها الاقتصادي وليدة الانظمة الرأسمالية . ويمكن ان نعبر عنها بايجاز وبساطة بأنها التقاء العرض بالطلب (القانون الرأسمالي الشهير) .

وكما نشأت السوق تاريخياً، فانها قد تطورت من حيث الشكل والمفهوم في ظل مختلف الانظمة الاقتصادية والاجتماعية والتقسيم الدولي للعمل . فمنذ ان بدء الانتاج البضاعي والملكية الفردية لوسائل الانتاج تكونت ملامحها الاولى وتمثلت في عمليات التبادل بأشكالها البدائية ، وكانت المقايضة العينية اولى اشكالها وصورها . ثم تابعت تطورها واستكمال تكوينها حتى وصلت الى أرقى اشكالها في ظل النظام الرأسمالي الامبريالي في الاسواق الحديثة الكبيرة المتمثلة في البورصات لمختلف انواع المنتجات والاوراق والرساميل والاسهم واليد العاملة. وقد عرف في التاريخ العربي عدداً من الاسواق الداخلية والخارجية والتي كانت تجري فيها المبادلات وتقام فيها المعارض التجارية وغير التجارية كسوق عكاظ المشهور والاسواق الاخرى التي كانت تحج اليها رحلة الصيف والشتاء التجاريتين. وبلادنا حتى الآن ملأى ببقايا واسماء ونماذج مختلفة من هذه الاسواق القديمة كالخانات والأسواق البضاعية والمكانية : كسوق الصوف والحرير والحنطة والسوق العتيق وسوق النسوان .. الخ .. ولكن نظراً لامتداد عهود الاقطاع لدينا وقصر حياة الانظمة البرجوازية الرأسمالية وضعفها لم تتكون لدينا البورصات وأسواق النقد والاسهم والرساميل .

لاشك في ان النظام الاقطاعي قد حد من تطور السوق واتساعها. وبالرغم من الجهود والنتائج التي حققها العهد الميركنتيلي في توسيع الاسواق وازالة الحدود والقيود امام انتقال البضائع وتنشيط المبادلات ، فان السوق لم تتطور وتتقدم الا في ظـــل النظام،

البورجوازي والرأسمالية وفي ظــل تطوير القوى المنتجة وزوال علاقات الانتاج الاقطاعية . إن ما امتازت به هذه الانظمة من انتاج وفير واسع ومتزايد كان يحتاج الى منافذ كبيرة للتصريف وأسواق واسعة للاستهلاك لتصريف هذا الانتاج وتجنب الأزمات الدورية التي كانت تعصف بها باستمرار . وعند انتقالها من نظام الانتاج البضاعي الى النظام النقدي والمصرفي مع مرحلة الامبريالية والاستعمار لم تعد الاسواق تقتصر على أهميتهـا المكانية وقدرتها الاستهلاكية للبضائع والسلع وانما امتدت الى تصريف الرساميل والاوراق النقدية والاسهم ، واخذت شكل البورصات حيث تتناغم فيها المفاوضات والمساومات وتعقـد الصفقات الكبيرة وتحـدد الاسعار العالمية في ظل القوانين الرأسمالية والاحتكارية . وقامت أكبر البورصات في معاقل البلدان الرأسمالية كواشنطن ونيويورك ولندن وباريس وطوكيو . وبعد ان قامت نظم الحماية وتوطدت بين الحربين العالميتين بسبب استفحال الازمات الاقتصادية وقيام الحروب من اجل اقتسام الاسواق وتوزيعها ، ولاسيما في النصف الاول من هذا القرن وخاصة بعد الازمة الرهيبة التي شهدتها الانظمة الرأسمالية في عام ١٩٢٩ ، تركز الاهتمام والبحث من اجل انقاذ الانظمة الرأسمالية - على المستهلكين والاسواق الكبيرة المتمثلة بالقوة الشرائية والقدرة على الاستهلاك سواء في الداخل او الخارج بحيث تستطيع هذه الانظمة معاودة الانتاج الكبير الوافر وتصريفه في هذه الاسواق ، فنشأت في البلدان الرأسمالية مع هذا الاتجاه النظريات والتنظيمات لمـا يسمى بالاسواق الكبيرة - الداخلية او الاقليمية التي تساعد على الانتاج الوفير وتشغيل اليد العاملة وتطبيق احدث الانجازات العلمية والتقنية بارخص التكاليف ، وبالتالي تحقيق الارباح . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانفصال عدد كبير من دول اوربا وتحريرها من السوق والانظمة الرأسمالية وانشائها سوقا مستقلة عنها هي السوق الاشتراكية ، وبعد تحرر جزء كبير من بلدان آسيا وافريقيا وسيرها في طريق التصنيع والتنمية ، حرمت الانظمة الرأسمالية من قسم هام من أسواقها التقليدية مما اضطرها الى الانكفاء على ما تبقى لها من اسواق داخلية او اقليمية لاعادة تنظيمها واستغلالها وفق هذه النظريات وبما يحفظ لها بقاءها واستمرارها ، فكان الاتحاد الجمركي / بينلوكس / الذي قام بـين هولاندا وبلجيكا واللوكسمبورغ ، ثم قامت المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي وتضم / ١٧ / دولة اوربية ، ثم منظمة المدفوعات الاوربية . ولكن هذه - التنظيمات لم تستطع ان تحقق الغرض من قيامها لانها لم تتضمن اكثر من الاعفاءات الجمركية او التسهيلات في انتقال البضائع او توازن المدفوعات دون ان تتمكن من الوصول الى حلول جذرية في تفادي الأزمات والصعوبات التي تهدد الاحتكارات والتروستات . فتجمعت ست

دول منها هي فرنسا والمانيا الغربية وايطاليا ودول البنولوكس الثلاثة واقامت المنظمة الاوربية للحديد والفولاذ بينهـــا ، بحيث تتمكن الاحتكارات الرأسمالية فيها من تنسيق واستثمار وتصريفهما تملكه وتسيطر عليه من هذه الثروة ، ثم اعقبتها باقامة السوق الاوربية المشتركة بينها كمرحلة اوسع واعم لتشمل مجالات اخرى غير الحديد والفولاذ ولتتمكن الاحتكارات المذكورة فيها من تشديد تحكمها وقبضتها على الثروات الاخرى معتمدة على سوق كبيرة واسعة بين الدول الست تمكنها من تنسيق وتصريف انتاجها واستخدام ثرواتها وتشغيل اليد العاملة فيها وتسهيل المبادلات التجارية بينها وتحقيق الارباح الوفيرة لها ، وفي نفس الوقت تبعدعنهـــا شبح الازمات الى اطول مدة ممكنة ، ولان الاسواق الصغيرة المجزأة لم تعد تناسب او تتسع لمتطلبات الانتاج الكبير وتطور القوى المنتجة والاستفادة من التقدم العلمي والفني والتكنولوجي .

ومن قبيـــل الاستطراد سأذكر ما كتبه أحد الاقتصاديين البرجوازيين الافرنسيين حول هذه التكتلات والاسواق الكبيرة بشكل عام وحول السوق الاوربية المشتركة بشكل خاص .

يقول الاستاذ جان فرنسوا دينيو في كتابه عن السوق الاوربية المشتركة: «يبدو ان الاقتصاد القوي المستند الى سوق واسعة يتمتع بقدرات هامة على مقاومة الازمات، ولكن اعتباراً من حد معين من الاضطرابات فان طريقة التراكم سوف تنفجر بعنف وعندها تصبح النتائج أشد خطورة بكثير ».

ثم يقول في مكان آخر : « يجب ان نتذكر ان السوق الاوربية قامت على الرهان أي على عدم الثقة والشك لان معاهدة روما ولدت من الفشل والصعوبات » .

في ضوء هذا العرض عن تطور ومفهوم السوق وخاصة السوق الكبيرة ، والذي اعتقد انـــه ضروري للتعرف على نشأة وتطور السوق العربية المشتركة وعلى القوى والحقائق الاقتصادية والسياسية القائمة وراء التكتلات والتجمعات والاسواق الكبيرة التي تأثرت بها وبتجربتها السوق العربية المشتركة والتي قامت بعد قيام السوق الاوروبية المشتركة والى حد بعيد على غرارها بالرغم من الاختلاف الكبير والكلي بين السوقين من حيث الدوافع والاهداف والظروف .

فالسوق العربية كما رأينا خطوة نحو الوحدة الاقتصادية بين اقطار وطن واحد يسعى للتحرر والوحدة والتقدم ، وهي القاعدة المادية الاساسية لوحدتنا القومية كحقيقة

تاريخية موضوعية . وبناضل شعبنا العربي من أجل تحقيقها منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الثانية وبعد نوال عدد من اقطاره استقلالها الوطني طرحت الفكرة لاقامة مؤسسات اقتصادية على المستوى العربي في اطار الجامعة العربية في عام ١٩٤٦ ، وبالرغم من ذلك فان السوق العربية لم تقم حتى عام ١٩٦٤ أي بعد مضي حوالي عشرين عاماً تقريباً . صحيح أنه سبق وبذلت جهود كبيرة وعقدت اتفاقات عديدة وقدمت مشاريع مختلفة للوحدة الاقتصادية خلال هذه الفترة ، ولكنها لم تحقق أي هدف لأنها لم تكن جدية ولا وحدوية ولم تكن تتجاوز حدود اتفاقات التعاون الاقتصادي وتسهيل التبادل التجاري والاعفاء الجمركي الجزئي ، ولأنها كانت اقرب الى تكريس وترسيخ التجزئة والتنافر منها الى التنسيق والتوحيد الاقتصادي ، ولأنها كانت تقوم على مبادىء بسيطة من التعاون لاتتعدى أقل مايمكن أن تقوم عليه العلاقات بين الدول الاجنبية او الصديقة ودون ان تتضمن اية اجراءات او خطوات جذرية لتحقيق الوحدة او التهيئة لها وازالة ماقد يعترضها من عقبات وعوائق على الاقل وان ماتضمنه بعضها من مبادىء التكامل الاقتصادي والتنسيق الصناعي بقيت حبراً على ورق ولم ينفذ منها شيء حتى الآن وبقيت الاقطار العربية الموقعة عليها محافظة على هياكلها الاقتصادية والاجتماعية وعلى سياساتها وخطط التنمية فيها بشكل مستقل ومنعزل عن سياسات وخطط البلدان الاخرى وغالباً مغايراً ومعارضاً لها .

فماهي الاسباب يا ترى ولماذا لا نستطيع حتى الآن اتخاذ أي اجراء جذري من شأنه ان يرسي قواعد الوحدة الاقتصادية او يهيء لاقامتها بالرغم من توفر كل عناصر التكامل والتوحيد الاقتصادي ؟

حتى السوق العربية التي جاءت خطوة متواضعة في هذا السبيل ، كان قيام السوق الاوروبية المشتركة حافزاً لاقامتها اكثر مما كان تلبية وتجاوباً مع مطالب الوحدة وضروراتها الموضوعية . ولماذا تأخر قيام هذه السوق رغم انها مطلب عربي ملح وموضوعي وهل كانت تنتظر قيام السوق الاوروبية لتحذو حذوها ، ام كما يقال لمواجهتها ، وهل يمكن الاقتباس من سوق قامت بين الاحتكارات الرأسمالية الامبريالية او مواجهتها بسوق متواضعة ضعيفة كالسوق العربية المشتركة في شكلها الحالي ؟ في اعتقادي ان السبب في اعاقة وتأخير قيام هذه الوحدة او قيام هذه الوحدة او قيام اية مؤسسة اقتصادية عربية يكمن في الاسباب الآتية :

١ — مقاومة الاستعمار والقوى الامبريالية واحتكاراتهـا لتحرير اقتصادنا

وتوحيده . ولذا كان من المتعذر علينا توحيد هذا الاقتصاد واقامة أي تنظيم اقتصادي عربي موحد قبل تحرير اقتصادنا في سائر البلدان العربية من أي نفوذ أو تبعية للاستعمار والامبريالية، وعلى رأسها الولايات المتحدة واحتكاراتها .

٢ - لم يكن للطبقات الاقطاعية والبرجوازية العربية اي مصلحة في توحيد الاقتصاد العربي وتحريره من التبعية والتحكم والاستغلال والسير في تنميته وتطويره على المستوى العربي وباتجاه تقدمي ، بل ابقائه مجزءاً متنافراً متنافساً حفاظاً على مصالحها الطبقية وخوفاً من زوالها من الوجود . يضاف الى هذا استسلامها للضغوط والمصالح الاستعمارية وضعفها وتخلفها وعدم قدرتها على اتخاذ اية خطوة ثورية جريئة في مجال الاقتصاد العربي ، بعد أن ثبت عجزها واحجامها عن مهام التصنيع والتنمية وتحرير الاقتصاد الوطني والقضاء على التخلف في اي قطر من الاقطار العربية . بل كانت تقوم بدور جسر ، لتغلغل رؤوس الأموال الاجنبية . ولم تكن تهدف ـ فيما اقامته من بعض الصناعات الخفيفة والاستهلاكية والاستثمارات المتواضعة ـ سوى الى الربح واستثمار الجماهير الشعبية واستغلال اموال الدولة وقدرتها . ولذلك لم تكن هذه الطبقات صادقة ولا جدية فيما كانت تطرحه من مشروعات ومقترحات لتوحيد الاقتصاد العربي وتنميته، ولا فيما كانت تعد به من خطوات في هذا السبيل . وكانت تماطل وتؤجل تنفيذ وتحقيق ما كانت تلتزم به وتوقعه من اتفاقيات، في الوقت الذي كانت لاتنفك فيه عن المزاودة وطرح المشروعات الوحدوية . وفي الحقيقة : ان اية خطوة وحدوية تتم بقيادة البرجوازية تؤدي الى خلق المزيد من التناقضات الطبقية والخلافات بين الاقطار العربية بشكل يفرغ الوحدة من اي مضمون تقدمي ويضعفها . كما رأينا عندما قامت الوحدة بين القطرين المصري والسوري في عام ١٩٥٨ كيف سارعت بقايا الطبقات الاقطاعية والرأسمالية في القطرين للعمل على تهديمها وتخريبها بشكل او بآخر الى ان قضت عليها وقوضتها ، وكان هذا شأن الوحدة الاقتصادية التي كانت تربط سورية بلبنان والتي فصمت في عام ١٩٥٠ بسبب تعارض المصالح الطبقية والاقليمية للطبقات الحاكمة فيها بعد الاستقلال بعيداً عن مصالح الجماهير الشعبية في القطرين. وكانت هذه الطبقات ـ في سياستها ومواقفها ـ تستوحي مصالحها الطبقية وتتبادل الاتهام في صراعها دون ان تستوحي هذه المواقف من مصالح الجماهير او مقتضيات التطور الموضوعي لتطور الاقتصاد العربي لأن ذلك معناه زوالها واقصاؤها عن سدة الحكم وانهيار قواعدها ومصالحها في البلدين . ولهذا فن المؤكد أنه لكي يتسنى السير في طريق التنمية والوحدة وتطوير قوى الانتاج واقامة علاقات اجتماعية افضل، لا بد من اقصاء هذه الطبقات وانتزاع السلطة ووسائل الانتاج منها .

٣ — ان الوحدة حقيقة تاريخية وشرطاً للتنمية والتحرر والتقدم ، هي ايضاً مطلب جماهيري . وان الاعتماد على الجماهير العربية قوة رئيسية قادرة على تحقيقها ، هو الطريق الصحيح . ومن الواجب افساح المجال لها للدفاع عنها ، وحمايتها ، وقيادة النضال من اجلها . وان غياب الجماهير عنها في سائر المراحل السابقة كان من اهم اسباب تأخيرها ، او انهيار ماقام منها من مؤسسات وحدوية .

٤ — ولا بد لنا — لتحقيق هذه الوحدة وبناء اقتصادنا العربي بمضمون وطني شعبي تقدمي ووفق تخطيط علمي شامل — من التخلص من الانظمة الرجعية والاعتماد على الانظمة التقدمية الثورية التي تؤمن بالاشتراكية وتعبر عن مصالح الجماهير الشعبية .

وحتى يتحقق ذلك ، فان تعميق التقدم الاجتماعي يساعد على خلق الظروف الملائمة لاقامة الوحدة الاقتصادية . وان النضال من اجل الاشتراكية ومن اجل الوحدة ، يجب ان يسير جنباً الى جنب .

٢ — المهام والأهداف والوسائل :

في اطار هذا التطور لفكرة الوحدة الاقتصادية ومن خلال القوى الاجتماعية والسياسية التي ساهمت فيه ، يمكن الآن ان ندرك بوضوح حقيقة السوق العربية المشتركة الراهنة وان نقيم بصراحة مضمونها وابعادها الحالية متجاوزين المظاهر والصيغ النظرية والعاطفية التي لم تستطع ان تتحول الى حقائق واقعية ملموسة رغم كل ماتتحلى به من رومانتيكية اقتصادية ومن جمال التعبير وسعة وبعد في الاهداف . لقد جاءت مؤسسة السوق العربية بعد سلسلة من الاجراءات والخطوات الاقتصادية على المستوى العربي منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن ، يمكن ان نلخصها فيما يلي :

١ — الاتفاقات الجماعية لتسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت وتسديد المدفوعات وانتقال رؤوس الاموال وتوحيد التعرفة الجمركية والمعقودة في نطاق الجامعة العربية في عام ١٩٥٣ ، وتتميز بما يلي :

أ — إعفاء المنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية ، من الرسوم الجمركية ، وتخفيض التعرفة الجمركية بنسبة للمنتجات الصناعية تتراوح بين (٢٠ و ٥٠٪) .

ب – لم يوقع على هذه الاتفاقيات سوى عدة محدود من البلدان العربية وهي : الجمهورية العربيـــة السورية والجمهورية العربية المتحدة والعراق واليمن والسعودية الكويت .

ج – ان اكثرها لم يوضع موضع التنفيذ ، كاتفاقية المدفوعات وانتقال رؤوس الاموال وتوحيد التعرفة الجمركيـــة . ولاتزال تنتقل في دوامة الدراسة ، والتصديق ، والاجراءات الروتينية .

د – لم يتحقق مما نفذ من هذه الاتفاقات في سبيل توحيد الاقتصاد العربي، سوى نتائج متواضعة لاتتجاوز نطاق التشجيع الجزئي المحدود للتبادل التجاري .

٢ – وهناك مجموعة كبيرة من الاتفاقات يمكن ان نسميها اتفـــاقات قطاعية : كاتفاقية المؤسسة العربية للانماء، والصندوق العربي للتنمية، وانشاء الشركة العربية للملاحة ، والشركة العربية لناقلات البترول ، والشركة العربية لخطوط انابيب النفط ، ومؤسسة الخطوط الجوية العربية ، والمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس، وغيرها، والتي لم توضع موضع التنفيذ .

٣ – الاتفاقات الدولية بين اكثر من دولتين والتي عقدت خارج نطاق الجامعة العربية، كاتفاقيات التنسيق والتكامل الثلاثة المعقودة بين الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية العراقية ، والاتفاقيات التي عقدت مؤخراً بين المتحدة وليبيا والسودان، واتفاقيات التعاون الاقتصادي بين دول المغرب العربي وهي الجزائر والمغرب وتونس ، تهدف جميعها الى تحقيق الوحدة الاقتصادية بين هذه الدول عن طريق التنسيق الصناعي والتكامل الاقتصادي. ولكنها -مع الاسف- لاتزال تتعثر في التطبيق والتنفيذ ولم تتقدم اية خطوة تذكر في تحقيق اهدافها رغم الاجتماعات والمحاضر والبروتوكولات ورغم اللجان والهيئات التي انبثقت عنها .

٤ – الاتفاقيات الثنائية الموقعة على نطاق ثنائي بين الدول المشار اليها اعلاه سواء ما كان منها حول التبادل التجاري او التنسيق الصناعي او التكامل الاقتصادي ، بالرغم من انها كانت اكثر جرأة مما سبقها او لحقها من اتفاقيات ، بما فيها السوق العربية المشتركة من حيث المبادىء والاهداف التي لم يترجم أي منها – مع الاسف – الى عمل وتنفيذ وبقيت في حدود الاتفاقيات .

٥ – ثم جاءت اتفاقية الوحدة الاقتصادية في عام ١٩٦٢ محاولة لجمع تراث

سائر ماسبقها من مشروعات واتفاقيات تبني كل ماتضمنته من مبادىء واهـــداف ، بالاضافة الى احداث اجهزة ومؤسسات جديدة أملاً في ان تستطيع تنفيذ هذه المبادىء والاهداف وتحويلها الى حقائق واعمال .

٦ - وأخيراً جاءت السوق العربية المشتركة في عام ١٩٦٤ بموجب قرار مجلس الوحدة رقم ١٧ / ٢٥ / ج ٦ أول ثمرات اتفاقية الوحدة الاقتصادية وسيلة وأداة لتحقيق اهدافها وآمالها، ولتتوج جهود حوالي عشرين عاماً من النضال والعمل من اجل اقامة هذه الوحدة .

فما هي هذه الاهداف وماهي الوسائل التي اختيرت لتحقيقها ؟

أهداف السوق :

هناك نوعان من الاهداف : أهداف بعيدة واهداف قريبة :

آ - أما الاهداف البعيدة فهي انعكاس لاهـــداف اتفاقية الوحدة ، والتي يمكن تلخيصها بما يلي :

١ - تحقيق التقدم الاجتماعي والازدهار الاقتصادي للدول الاطراف المتعاقدة .

٢ - ارساء دعائم الوحدة الاقتصادية على أسس سليمة من التنمية الاقتصـــادية المتناسقة المستمرة تتفق والصلات الطبيعية والتاريخية القائمة بينها .

٣ - تحقيق التكامل الاقتصادي بين الاطراف المتعـــاقدة ، وتوحيد الجهود لتحقيق افضل الشروط لتنمية ثرواتها ورفع المعيشة وتحسين ظروف العمل .

ب - ثم تتقلص هذه الاهداف الطموحة الواسعة وتتحول الى اهداف متواضعة لاتخرج عن أهداف سائر الاتفاقيات الاخرى السابقة ، وهي :

١ - حرية انتقال الاشخاص، ورؤوس الاموال .

٢ - حرية تبادل البضائع، والمنتجات الوطنية والاجنبية.

٣ - حرية الاقامة، والعمل، والاستخدام ، وممارسة النشاط الاقتصادي .

٤ - حرية النقل، والترانزيت ، واستعمال وسائل النقل والمرافىء والمطارات المدنيـــة .

ثم يختار السوق من بين هذه الاهداف (حرية التبادل) لمرحلته الاولى ، ويترك الاهداف الاخرى الى المراحل المقبلة ...

الوسائل :

وقد اختارت السوق لتحقيق هذا الهدف في مرحلته الاولى ، ومدتها عشر سنوات قلصت فيا بعد الى ثماني سنوات ، الوسائل التالية :

آ – الالغاء المتدرج للقيود الادارية ، كالاجازات وتدابير المنع أو التقييد ونظام الحصص النقدية بمعدل ٢٠ ٪ في السنة .

ب – التخفيض المتدرج للرسوم الجمركية والرسوم الاخرى بنسب مئوية محددة حتى تصل الى الاعفاء الكامل ، وذلك وفق برنامج زمني حدد بخمس سنوات للمنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية سواء الواردة في الجدول آ من اتفاقيــة الجامعة العربية ام غير الواردة فيه بمعدل ٢٠ ٪ في السنة ، وبعشر سنوات لباقي المنتجات الصناعية بما فيها المنتجــات الواردة في الجدولين (ب) و (ج) بمعدل ١٠ ٪ منها (ثم خفضت هذه المدة في عام ١٩٦٨ الى ثماني سنوات) وذلك بالاضافة الى نسب التخفيض السابقة الواردة في الاتفاقية المشار اليها وبمعدل ٢٥ ٪ للاولى و ٥٠ ٪ للثانية ، اعتباراً من بدء عام ١٩٦٥ وبحيث ينتهي البرنامج الزمني في عام ١٩٦٩ بالنسبة للمنتجات الزراعية وفي عام ١٩٧١ بالنسبة للمنتجات الصناعية .

ج – تطبيق مبدأ المعاملة التفضيلية استيراداً وتصديراً والمعاملة الاكثر رعاية ، بحيث تلتزم كل دولة باستيراد احتياجاتها من السلع الفائضة المتوفرة لدى الدولة الاخرى وتصدير الفائض المتوفر لديها الى الدول التي تحتاج اليه .

ان اقل مايقال في هذه المبادىء والوسائل انها متواضعة وضعيفة جداً وبعيدة عن المفهوم الحقيقي للسوق الواحدة ، وبالتالي للوحدة الاقتصادية . وبالاضافة الى ذلك والى النتائج العملية المتواضعة التي اعطتها من خلال التطبيق ، فان السوق العربية تتميز منذ نشأتها بالثغرات الآتية :

آ – لاتشمل السوق سوى سبعة بلدان عربية من أصل أربعة عشر بلد عربي ، هي الاعضاء في مجلس الوحدة الاقتصادية وهي : الجمهورية العربية المتحدة – الجمهورية العربية السورية – العراق – الاردن – الكويت – اليمن – السودان . وعملياً أربعة فقط باستثناء الدول الثلاث الاخيرة لأن الاولى لم تصدق اتفاقية السوق ، والثانية استثنيت منها ، والثالثة لم تستكمل أسباب انضمامها اليها بعد .

ب - لم تأت السوق بمبادىء واحكام تفوق ماتضمنته الاتفاقيات السابقة لها وانما جاءت ترداداً وامتداداً متواضعاً وبطيئاً لها ، بل وتراجعاً عن بعضها بالنسبة لمفهوم الوحدة ولتطبيقها .

ج - بالرغم من اهمية تحرير المبادلات التجارية كخطوة على طريق الوحدة فان السوق ارجأت العناصر والاهداف الاخرى كافة والتي تعتبر اساساً في كل توحيد اقتصادي ؛ وهي التنسيق الصناعي وعناصر الانتاج كرؤوس الأموال واليد العاملة . ومرد هذا - كما سبق بيانه - خشية الطبقات الحاكمة آنذاك في البلدان الاعضاء على مصالحها الطبقية والاقليمية .

وفي الحقيقة ، ان اي تحرير للمبادلات التجارية لايمكن ان يؤتي أكله قبل البدء في تحرير وتوحيد الانتاج والقيام بتنسيق صناعي يستطيع أن يغذي وينشط هذه المبادلات ويزيل من طريقها العقبات الاساسية التي تحول دون نموها وبعد ذلك تأتي الإجراءات الادارية والتجارية الأخرى التي بدأ بها السوق . وهكذا يمكن القول: ان السوق العربية بدأت بما يجب ان تنتهي به في هذا المجال .

د - تركت السوق مجالاً لاستثناء بعض المنتجات من الاحكام والتدابير التي جاءت بها لأسباب دعتها : جدية ومبررة ، كما أعفت جمهورية اليمن اعفاء كاملاً منها نظراً لظروفها الخاصة ؛ وهذا ما اضعف وقلل من اهمية هذه التدابير وزاد في صعوبة تطبيقها تطبيقاً جيداً .

هـ - الى ان تضع جداول خاصة بالسوق العربية المشتركة لجنة فنية يؤلفها مجلس الوحدة تشتمل على تفضيل اوسع ، تبنت السوق أساس جداول المنتجات الملحقة باتفاقية الجامعة العربية لتسهيل التبادل التجاري الموضوعة عام ١٩٥٣ والتي اصبحت بعيدة عن واقع الاقتصاد العربي وتحوله وتحتاج الى دراسة واعادة نظر في ضوء التطور والتحول .

و - وهناك ثغرات اخرى في اصل اتفاقية الوحدة الأم انعكست على السوق العربية كعدم الزامية القرارات المتخذة ، وعدم وجود تحكيم عربي للخلافات أو المخالفات ، واخضاع تنفيذ هذه القرارات الى السلطات الدستورية في البلدان الاعضاء مما ادى الى اضعاف سلطة السوق وزاد في عجزها عن تحقيق اهدافها وتنفيذ مقرراتها مما لانستطيع الاسباب في بحثه في هذا المقال .

ز - ومن هذه الثغرات ضعف جهاز السوق الاداري والفني ، الذي هو جهاز مجلس الوحدة الاقتصادية بالذات . ليس امام مجلس الوحدة عملياً سوى مهام السوق واعمالها ، كل مايمارسه حول الاهـداف الاخرى لايتجاوز حدود الدراسات والاجتماعات والمؤتمرات . وفي الواقع لم تقترن بعد هذه الاعمال باية نتائج عملية ملموسة بالنسبة لاهدافه ولمسؤولياته تجاه الوحدة الاقتصادية كما سنرى في الصفحة التالية ، ومع ذلك فانه من المفروض ان يتوفر لدى السوق الاجهزة الفنية الكافية والقادرة على تأمين الاحصاءات والدراسات التي تتوقف عليها كثير من اعمال اللجان بحيث يتسنى البت في كثير من الموضوعات المعروضة عليها والتي يتوقف اتخاذ القرار فيها على هذه الدراسات ، مما يساعد ذلك على كسب كثير من الوقت والجهد .

واخيراً لابد من الاشارة الى ماهدفت إلى تحقيقه اتفاقية الوحدة ، تمهيداً لاقامة وحدة اقتصادية كاملة ، من اهداف اخرى تتلخص فيما يلي :

آ - جعل بلادها منطقة جركية واحدة تخضع لادارة وتشريع وانظمة وتعرفة جركية واحدة ، وهذا مايعرف بالوحدة الجمركية .

ب - توحيد سياسة وانظمة الاستيراد والتصدير .

ج - تنسيق السياسة المالية والنقدية تمهيداً لتوحيد النقد فيها ، والسياسة المتعلقة بالزراعة والصناعة والتجارة الداخلية وتشريع الضرائب والتشريع الاقتصادي والاجتماعي والضريبي بما يكفل لرعايا البلاد المتعاقدة شروطاً متكافئة .

د - توحيد اساليب التصنيف والتبويب الاحصائية .

ولكن الاتفاقية لم تتعرض لبحث وتحديد كيفية ووسائل وتوقيت تحقيق هذه الاهداف بالاضافة الى السوق العربية المشتركة ، التي حلت هذه الاعباء بوسائلها المتواضعة الضعيفة . وهكذا يبدو بوضوح عمومية الاهداف كما تبدو على درجة من المرونة والشمول بالاضافة الى ضعف الوسائل وعدم اتصافها بالحزم والحتمية ، بحيث يشعر الانسان مثلاً بعجز السوق المسبق - بل المطبق - عن الوصول الى الوحدة الاقتصادية المنشودة او مقدماتها في الميادين التي اختارتها السوق لنفسها على الأقل الا بعد أمد طويل وطويل جداً . وعندها - كما يقول الاقتصادي الانكليزي كينز - نكون قد متنا .

ان السبيل الناجح في رأينا لتحقيق هذه الوحدة الاقتصادية هو طرحها بوضوح وصراحة والتخطيط الشامل لها بدءاً من مشاريع التنمية والتصنيع القائمة حالياً أو التي ستقام على أساس التكامل وتقسيم العمل العربيين، وكذلك تنسيق المشروعات الانتاجية والاستثمارات الاخرى لاستغلال الثروات العربية إستغلالاً عقلانياً وتوفير عناصر استثمارها كافة خلال فترة زمنية وبوتيرات عالية تحدد سلفاً وتهيء لها امكانيات النجاح كافة تهيئة تنتهي الى اقامة الوحدة الاقتصادية او ارساء قواعدها الاساسية على الاقل إرساء علمياً واضحاً وأكيداً .

ان الاعتماد على السوق العربية لوحدها وبشكلها الحالي الذي رأيناه ، وكما سنرى نتائجها العملية في التطبيق، غير كاف ولا قادر على تحقيق هذه الوحدة او إرساء قواعدها الاساسية في المجال الاقتصادي. وان كل ادعاء بخلاف ذلك هو دغدغة للعواطف والاماني، أكثر منه بناء متيناً او تحقيقاً للوحدة الاقتصادية او لمقوماتها الضرورية على الاقل .

٣ ـــ النتائج العملية والتطبيق :

بعد هذه الجولة السريعة ـ حول أهداف السوق العربية المشتركة القريبة والبعيدة منها وحول وسائلها وأدواتها التنفيذية ـ ننتقل بالبحث الى النتائج والمنجزات العمليـــة التي حققتها السوق العربية في حدود الأهداف المرسومة لها وفي ضوء الأرقام والوقائع .

نحن الآن في نهاية المرحلة السادسة ، وعلى ابواب المرحلة السابعة من مراحل اقامة هذه السوق . ويجب أن يتم في المرحلة الحاليـــة التحرير الكامل من القيود الادارية، والاعفاء الكامل من الرسوم الجمركية لجميع السلع الزراعية والحيوانيـــة والثروات الطبيعية والتخفيض الجزئي لهذه الرسوم على السلع الصناعية الواردة في الجدولين (ب) و(ج) وغيرها من السلع المحررة الاخرى غير الواردة فيها وقدره ٥٠٪ بالنسبة للاول و ٩٠٪ بالنسبة للثانية . ومن المفروض أيضاً أن يبلغ هذا التخفيض في المراحل المقبلة في عام ١٩٧١ الاعفاء الكامل على السلع الصناعية كافة أي ١٠٠٪ من الرسوم الجمركية، وبذلك يكون السوق قد وصل الى مرحلة ما يسمى بالتبادل التجاري الحر . واذا سلمنا جدلا ونظريا بان اقامة مثل هذه المنطقة للتبادل التجاري الحر بين الدول الاعضاء في السوق هي اول أهداف السوق ، وهي مرحلة ضرورية سيعقبها مرحلة اخرى هي مرحلة اقامة الجدار الجمركي الموحد أو المنطقة الجمركية الموحدة قبل الوصول الى اقامة السوق العربية المشتركة بمعناها الحقيقي والاقتصادي ، لادركنا مدى تخلف السوق العربيـــة عن

الوصول الى اهدافها حتى القريبة منها . وتبدو بوضوح اكثر اهمية هذا التخلف والبطء في سيرها، اذا تذكرنا ان مساحات البلدان الأعضاء في السوق تبلغ حوالي (٤،٥) مليون متر مربع وان عدد السكان والمستهلكين فيها يعادل حوالي (٦٥) مليون نسمة وتشكل الاكثرية الساحقة من سكان الوطن العربي كمستهلكين ومنتجين يمكن أن يلعبوا دوراً هاماً وحاسماً في تنشيط وتوسيع المبادلات التجارية في اطار السوق العربيـة وفي دعم وتوطيد هذه السوق وضمان سرعة انشائها واقامتها في كل المراحل وباقصر مدة ممكنة .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن مدى ما انجزته السوق العربية في مجال توسيع وتنشيط المبادلات التجارية بين اعضائه ، وعن حجم وابعاد هذا الانجاز . وعلى هـذا التساؤل نجيب – بالارقام والوقائع – بما يلي :

١ – ان حجم المبادلات التجارية المتحققة فعلا من دول السوق العربية ، بالنسبة لمجموع مبادلاتها التجارية الاجمالية ، لاتتجاوز وسطياً (٤٪) على وجه التقريب . وهي نسبة ضئيلة جداً لاتشكل وزناً ذا شأن في حجم العلاقات الاقتصادية بين هـذه البلدان الشقيقة، لاسيا اذا قارناها بنسبة حجم التبادل التجاري بين بلدان السوق الاوروبية المشتركة التي تعادل المبادلات بينها حوالي ٣٠٪ من مجموع المبادلات الاجمالية للدول الاعضاء مع العالم ، او بحجم المبادلات التجارية بين بلدان مجلس التعاون الاقتصادي للبلدان الاشتراكية (الكوميكون) والتي تعادل ٦٠٪ من مجموع مبادلاتها مع العالم .

٢ – مع مراعاتنا لقصر حياة السوق نسبياً وقصر المدة التي مرت على اقامتها، فان تطور المبادلات التجارية بين الدول الاعضاء فيها بعد انشائها بالنسبة لما كانت عليه من قبل يجري ايضاً بوتيرة ضئيلة جداً لا تكاد تذكر ، فاذا اخذنا على سبيل المثال حجم هذه المبادلات خلال سنتين قبل انشاء السوق، اي خلال عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٤، وقارناها بحجمها خلال سنتين لاحقتين بعد انشاء السوق اي خلال عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٨ لوجدنا الزيادة السنوية ضئيلة جداً أو شبه معدومة . ومن اجل ذلك لدينا مصدران لهذا الاحصاء : الاول يدل على ان حجم هذه المبادلات قد تناقص خلال هذه الفترة بنسبة ٥،٥٪ وسطياً في السنة ، حيث كانت خلال العامين الاولين تعادل ١١٥ مليون جنيه استرليني تقريباً ، بينما تناقصت خلال العامين التاليين الى ١٠٥ مليون جنيه اي بنقص قدره ١٠ ملايين جنيه خلال هذه الفترة . والمصدر الثاني يـدل على زيادة حجم المبادلات خلال نفس الفترة بمعدل وسطي قدره ٤،٢٥٪ تقريباً ، حيث بلغ حجمها في السنتين الاولين

٩٧ مليون جنيه ، بينما ارتفعت خلال السنتين التاليتين الى / ١٠٥ / مليون جنيه أي بزيادة / ٨ / ملايين جنيه .

واذا تفاءلنا واخذنا بالمصدر الثاني للاحصاء، فان هذه الزيادة بطيئة وضئيلة جداً لا تبشر بتطور سريع وكاف العلاقات المقبلة بين بلدان السوق ولا تتناسب مع قدرة بلدانها وحجم مبادلاتها واسواقها .. ومع الاهداف والصلات القومية التي تربطها وتطمح وتسعى شعوبها الى تحقيقها .

٣ - واذا استعرضنا بوجه خاص تطور علاقات الجمهورية العربية السورية مع السوق العربية خلال فترة اطول ، اي خلال السنوات الثلاث التي سبقت اقامة السوق، اي خلال الاعوام ١٩٦٢ و ١٩٦٣ و ١٩٦٤، والسنوات الثلاث التي اعقبت اقامته اي خلال الاعوام ١٩٦٧ و ١٩٦٨ و ١٩٦٩ ، لوجدنا ان حجم مبادلاتنا مع بلدان السوق العربية المشتركة قد بلغت حوالي ٤٤ مليون جنيه استرليني خلال الفترة الاولى ، وهذا ما يعادل حوالي ٥٪ من اجمالي مبادلاتنا الخارجية مع العالم والبالغة حوالي ٩٦٧ مليون جنيه خلال هذه الفترة . ثم ارتفع حجم مبادلاتنا مع بلدان السوق الى حوالي ٦٠ مليون جنيه خلال الفترة الثانية اي ما يعادل حوالي ١٠،٥ ٪ من اجمالي مبادلاتنا الخارجية مع العالم والبالغة حوالي ٥٧٣ مليون جنيه خلال هذه الفترة ذاتها . ويعني هـذا ان قيمة مبادلاتنا المطلقة مع بلدان السوق قد زادت بمعدل / ٥ / مليون جنيه وسطيا في السنة خلال الفترة المقارنة، وهذا يعادل حوالي ١١،٥٪ وسطياً في السنة من قيمة مجموع المبادلات مع دول السوق . ولكن الزيادة النسبية تبدو اقل من هذا المستوى اذا اخـذنا بعين الاعتبار الزيادة التي طرأت على حجم مبادلاتنا الاجمالية مع دول العالم خلال الفترة المقارنة والتي تعادل ٧،٥ ٪ وسطياً في السنة مما يخفض نسبة الزيادة في مبادلاتنا مع دول السوق الى حوالي ٤ ٪ وسطياً في السنة . وهذا - بصراحة - قليل وقليل جدا .

٤ - قد يقول بعض القراء ان هذه المقارنة غير حاسمة لانها تناولت فترة قصيرة وقريبة جدا من حدود انشاء السوق ، لاسيا وان السوق لم تتجاوز بعد سائر المراحل التي رسمت لهـا ويجب ان ننتظر فـترة اخرى اطول ليتسنى لنا تكوين حكم أصح عن زيادة المبادلات التجارية . هذا صحيح من حيث الشكل ، ولكن يمكن ان نرد عليه بما يلي :

آ - لئن كانت هذه النتائج غير حاسمة ، فانهـا تعتبر مؤشراً هاماً لسير المبادلات

لاينبىء او يدل على انها ستتحسن في المستقبل اكثر من ذلك اذا استمرت السوق سائرة في نفس الطريق ومعتمدة على نفس الاساليب والوسائل .

ب – ان هذه النتائج – على تواضعها – قد لا يعود الفضل فيها لاحكام السوق العربية وحدها وانما يعود ايضا الى الاتفاقيات الثنائية الاخرى القائمة بين دول السوق والنافذة المفعول والتي ساهمت الى حد بعيد في تنشيط وتوسيع المبادلات التجارية بين هذه الدول بالاضافة الى احكام السوق .

ج – هناك شكوى مرة تثار باستمرار حول عدم تحرير السلع المتبادلة بالنسب المقررة لمراحل السوق من القيود الادارية كالاجازة واحكام المنع والتقييد والحصص النقدية ، وهناك عدد من الدول الاعضاء لاتزال متمسكة بهذه القيود بسبب بعض الظروف الخاصة او الظروف الطارئة بعد عدوان حزيران في عام ١٩٦٧ . ولا تزال الامانة العامة للسوق تلاحق الدول الاعضاء ، لحل هذه الصعوبات وتجاوز الظروف التي تحول دون الغاء هذه القيود . ومعنى هذا ان السوق لم تتمكن حتى الآن من تحقيق اهدافها في تحرير المبادلات من هذه القيود ، التي يعتبر الغاؤها شرطاً اساسيا وضروريا لتحقيق مهمتها في التحرير الفعلي للمبادلات التجارية وفي اقامة « منطقة للتبادل الحر » بين الدول الاعضاء . ومعنى هذا ايضا ان هذه المنطقة لم تتحقق حتى الآن .

د – ولعل هذا الكلام صحيح ايضا بالنسبة لنظام الأفضليات وشرط الدولة الاكثر رعاية ، التي شكلت لها لجنة خاصة لمتابعة واستقصاء المعلومات ومعرفة الفائض والاحتياجات لكل دولة والسعي لحمل الدول الاعضاء على عقد الصفقات اللازمة لاحتياج كل دولة بالاسعار العالمية مما يتوفر لدى الدول الاخرى ويفيض عن احتياجها من السلع والمنتجات .

هذا اقل ما يمكن ان نقوله في مجال تحرير المبادلات التجارية واقامة منطقة التبادل الحر بين الدول الاعضاء في السوق ، وهو هدف اساسي واولي من اهداف السوق . اما ما تم من اجل تحقيق الاهداف الاخرى التي اشرنا اليها آنفا والمتعلقة بالوحدة الجمركية وانتقال رؤوس الاموال والاشخاص واليد العاملة والتنسيق الصناعي والمالي والنقدي الخ ...... وهي جميعها شروط ضرورية ومقدمات اساسية من اجل ارساء قواعد الوحدة الاقتصادية والتهيئة لها على الاقل ، فهو ضئيل ويكاد لايذكر . ومع ذلك يمكن ان نوجزه فيما يلي :

١ – ان أهم مايمكن الاشارة اليه في عداد هذه المنجزات هو اتحاد المدفوعات العربي الذي أقر ووضع نظامه منذ عام ١٩٦٩ ولكنه لم يوضع حتى الآن موضع التنفيذ، نظراً لأنه لم يصدق بعد ولم يسدد الدول الأعضاء رأسماله ، وما يزال بعضها يعترض على البدء بتنفيذه ويرى تأجيل ذلك . وهذا غير جائز ولا مقبول ، وليس له مايبرره . يجب الاسراع بوضع الاتحاد موضع التنفيذ ، وتمكينه من مباشرة مهامه بدون تأجيل .

٢ – أما بالنسبة لتنسيق السياسة النقدية والمالية والتشريع الضريبي ، فلا تزال قيد الدرس وجمع المعلومات . وكل ما تقرر بشأنها – حتى الآن – هو استمرار المشاورات وعقد المؤتمرات واتخاذ التوصيات دون الوصول الى أية نتيجة عملية في هذا المجال .

٣ – وفي المجال الجمركي ، فان اللجان الفنية ما تزال تدرس مشروع القانون الجمركي الموحد، لأنه لم يتم الاتفاق حتى الآن بين الدول الاعضاء على كامل مواد المشروع وبنوده لا سيما المواد المتعلقة بتعريف التهريب ومفهومه واصول المحاكمات والتسويات الصلحية والمسؤولية المدنية والجنائية. وقد اعيدت هذه المواد جميعها من جديد الى الدول الأعضاء ، لتعيد النظر بها تمهيداً لحل الخلافات حولها . وكذلك الامر بالنسبة لمشروع الادارة الجمركية الموحدة التي لاتزال قيد البحث ولم يبت فيه قبل البدء في مرحلة اقامة الاتحاد الجمركي وتوحيد فئات التعرفة الجمركية حيال العالم الخارجي، أي بعد اقامة « الجدار الجمركي » . وهذه الأمور لاتزال كلها قيد البحث، ولم يتفق حتى الآن على أسس ومعدلات ومراحل هذا التوحيد .

٤ – اما مايتعلق باستثمار رؤوس الاموال العربية وانتقالها بين الدول الاعضاء ، فهناك مشروع اتفاقية تضمن مبدأ المعاملة التفضيلية وشروط الدولة الاكثر رعاية على الاستثمار العربي وتقديم جميع التسهيلات لتشجيع انتقالها واستثمارها في الاستثمارات الاقتصادية العربية المشتركة ومعاملتها معاملة الاستثمارات الوطنية وكفالتها وضماناتها في حال التأميم أو المصادرة أو نزع الملكية . وهذا المشروع لايزال قيد البحث ، ومثله مشروع اتفاق بانشاء مؤسسة عربية لضمان هذه الاستثمارات والتأمين عليها ضد الأخطار غير التجارية .

وهنا يجب التنويه بالمحاذير التي تكمن وراء مثل هذه المشروعات بالنسبة لتغلغل رؤوس الأموال الاجنبية وتسللها الى البلدان المتحررة عن طريق البلدان الاخرى ، التي ما لاتزال تعشش فيها الاحتكارات الامبريالية .

٥ - ولا يزال مشروع البطاقة الشخصية الموحدة ودفتر العائلة الموحد لانتقال الاشخاص بين الدول الاعضاء - الذي اقر منذ العام الماضي والجزته الجمهورية العربية السورية - مؤجل التنفيـــذ حتى اشعار آخر ، وكذلك الامر بالنسبة لاتفاقيات تشريع العمل والتأمينات الاجتماعية التي اقرت منذ عام ١٩٦٦ ولم يصدق عليهـــا سوى الجمهورية العربية السورية .

٦ - وفي مجال التنسيق الصناعي الذي يجب ان يكون حجر الزاوية بالنسبة للسوق وللوحدة الاقتصادية بالذات هناك مشروعات متنوعة وهامة : كصناعة الادوية والجرارات والآلات الزراعية وصناعات النسيـج والغزل والحديد والفولاذ والصناعات البتروكيماوية والاسمدة الآزوتية والفوسفاتية والورق وعجينة الورق والحرير الصناعي يجري البحث في تنسيقها بين الدول الاعضاء ، وطبعا لا تزال في مرحلة اعداد البيانات والاحصاءات والدراسات والمشاورات . وفي اعتقادنا ان مثل هذا الاسلوب - على أهميته وفوائده - لن يعطي النتائج المرجوة . وان يحقق هذه المشروعات نتائج أفضل مما حققه لغيرها من المشروعات الاخرى التي أشرنا اليها آنفاً ، والتي تقل أهمية بكثير عن مشروعات التنسيق الصناعي . وان ما ننفقه ونهدره عليها من جهد ووقت لا يتناسب اطلاقاً مع مايرجى منها من نتائج ، ومن الضروري معالجة التنسيق الصناعي بغير هذا الاسلوب سواء بالنسبة لطبيعة أو نوع أو اهمية الصناعات المختارة للتنسيق أو بالنسبة لعمليات هـــذا التنسيق نفسها ، ومن الافضل ان توضع خطة شاملة متكاملة ومتدرجة له تحتوي على برنامج زمني مترابط تحدد فيه كافة ابعاد ومواعيد ومراحل هـــذا التنسيق . كما يمكن الأخذ بمبدأ التنسيق القطاعي ، حيث يبدأ بتنسيق قطاع معين ثم ينتقل الى قطاعات اخرى في ضوء نتائج كل مرحلة وحسب طبيعة كل قطاع .

٧ - وهناك عدد آخر كبير من المشروعات التي نامت طويلا في ادراج الجامعة العربية ثم جاء مجلس الوحدة الاقتصادية وايقظها ليحتضنها من جديد ويسعى الى بعث الحياة فيها واستكمال أسباب انشائها ودفعها الى حيز الوجود ، كمشروع الطيران العربي المشترك والشركة العربية للملاحة وانشاء مؤسسة زراعية .

٨ - ان من أهم ماتجب الاشارة اليه في منجزات السوق هو الدورة الاستثنائية التي عقدت في منتصف هذا العام ١٩٧٠ في القاهرة على مستوى وزراء التخطيط لدراسة شؤون تنسيق الخطط الاقتصادية بين الدول العربية الاعضاء في السوق العربية بحيث يراعى ارتفاع معدلات النمو وتحقيق التكافؤ في التنمية مع مراعاة البلاد الاقل نمواً

واعطاء المشروعات التي تدعم البنيان الاقتصادي وتربط اقتصـاديات البلاد الاعضاء بعضها ببعض وتزيد من درجة التخصص النوعي وتربط الانتاج بالاستهلاك وتكيفه حسب متطلبات السوق العالمية الى اخر المعطيات الاساسية في التخطيط على المستوى العربي .
وبالرغم من أنه كان يجب اتخاذ مثل هذه الخطوات منذ البداية دون انتظار مرور ست سنوات على اقامة السوق لكي تقوم بها ولو أنها جاءت متأخرة فانها خطوة صحيحة ومشكورة يجب متابعتها ووضعها موضع التنفيذ الدقيق والسريع ، ولا يجوز أن تنتهي الى المصير نفسه الذي انتهت اليه المشاريع والمواضيع الاخرى أو تبقى في اطار اللجان الفنية وجمع البيانات والمعلومات والاحصاءات .نقول هذا في ضوء ماتوصل اليه المؤتمر المشار اليه بانشاء ادارة للتخطيط والاحصاء والمتابعة في مجلس الوحدة وتشكيل لجنة مشتركة دائمة للتخطيط من ممثلي الدول الاعضاء تقوم بالبحوث والدراسات وتعرض على السادة وزراء التخطيط توصياتها للبت فيها من قبلهم .

٩ – واخيراً لا بد من التنويه بالمساعي التي تبذل لاقامة علاقات مـع السوق الاوروبية المشتركة بقصد الاستفادة من المزايا والمنافع التجارية والمساعدات الفنية التي يمكن أن تمنحها لنا دول هذه السـوق . ولا بد من التذكير بضرورة دراسة هذه العلاقات بدقة وحذر وتجنب ما يمكن أن تتضمنه من مخاطر وأخطار نظراً لطبيعة دول السوق الاوروبية وما تضمه من دول استعمارية معادية لنا ومؤيدة للصهيونية ، وما تجمعـه من الاحتكارات والتروستات الامبريالية .

وقد يكون من الصعب انتصور أن تقدم مثل هذه الدول والاحتكارات للدول العربية التقدمية المعادية للصهيونية والامبريالية معونات ومساعدات بريئة تساعدها على متابعة سياستها التحررية والتقدمية، وهي التي تسعى وتحاول بأي ثمن وبكل الوسائل لضرب وإفشال سياستنا واهدافنا في التحرير وبناء الوحدة الاشتراكية ، وللتغلغل برساميلها الى اقتصادنا العربي والتسلل بقواها المعادية للتآمر علينا واستثمار ثرواتنا واعاقة تطورنا وتقدمنا .

وان التسهيلات والمزايا التي يرجى الحصول عليها لا بـد ان يقابلها مزايا ومنافع لمصلحة دول السـوق الاوروبية واحتكاراته وقد تكون اوسع واكبر مما قد تمنحه الينا ، سيا وان صادراتنا اليهـا لا تتجاوز المواد والمنتجات الاساسية التي نصدرها الى سائر الاسواق العالمية وبافضل الشروط ، كالبترول الخام والقطن والصوف والحبوب .

الخاتمة

بعد هذا الكشف وبعد ان استعرضنا بالخطوط العريضة ما للسوق العربية المشتركة وما عليها، ما اعلنته من اهداف وما حققته من نتائج، وبعد نضال حوالي ربع قرن من اجل الوحدة الاقتصادية، خاصة بعد عقد عدد كبير من الاتفاقات الثنائية والثلاثية والسباعية والجماعية وبعد مضي حوالي / ١٤ / عاماً على البدء في بحث ومناقشة اتفاقية الوحدة الاقتصادية، وثمان سنوات على توقيعها و ١٢ عاماً على بحث انشاء السوق العربية المشتركة وست سنوات على اقامتها، ونحن الآن في عصر الذرة والالكترون وغزو الفضاء وسبر القمر بالانسان وبالآلة الحديثة بدون انسان، بعد هذا كله نتساءل ماذا حققت السوق العربية المشتركة وماذا كسبت منها وحدتنا الاقتصادية وأين نحن الآن من هذه الوحدة ؟.

يجب أن نقول بصراحة ان كل ماجنيناه من هذه الجهود والاتفاقات والمؤتمرات وما تحقق من خطوات فعلية لا يتجاوز الآتي :

شبه منطقة للتبادل الحر لم تكتمل بعد ولم تتوفر لها كل عناصر التحرر التجاري. يجب أن يليها — بعد استكمالها — مرحلة الاتحاد الجمركي فرحلة السوق العربيـــة المشتركة بمعناها الحقيقي والاقتصادي. ولا بد الى جانب اقامة هذه السوق من انجاز التنسيق الصناعي والتوحيد النقدي والمالي حتى تقوم معالم الوحدة الاقتصادية الشاملة او الدمج الاقتصادي الكلي. ولكن متى وكيف سيتم هذا كله ؟ هل يتم بهذه الخطى البطيئة المتهادية التي تسير بها السوق العربية المشتركة، كسير الابل في صحرائنا العربية والماء فوق ظهورها محمول؟. هل تتناسب هذه الخطوات وما حققته من منجزات متواضعة مع ماتطمح اليه شعوبنا العربية وما ناضلت من اجله ؟ هل يعفينا هذا من مسؤليتنا التاريخية تجاه هذه الشعوب وتجاه الاجيال القادمة ؟

ارجو الا يدفعنا هذا الكشف القاتم الى التشكيك بأهمية السوق العربية وبوجودها وبدورها وضرورة استمرارهـــا . وارجو الا تفسر هذه التساؤلات بعدم الايمان او عدم الحرص عليها او الرغبة بازالتها . ان ما حاولته في حديثي عنها وما اوردته من وقائع وارقام وماقمت به من تحليل واقعي صادق هو التعريف بها على حقيقتها بوضوح وكشف حسناتها وسيئاتها ليكون هذا حافزا لنا جميعا على دفعها نحو الأفضل وجعلها قولا وعملا اداة فعالة في تعميق التحولات التقدمية وفي تحقيق التنمية والوحدة ومواجهة التجزئة والتخلف على المستوى العربي . ولكن السؤال الملح يبقى قائما حول

ما اذا كانت هذه السوق العربية كما رأيناها بشكلها الراهن وامكانياتها الحالية وباساليب عملها ووتائر منجزاتها قادرة على تحقيق هذه الاهداف ؟ وبالرغم من كل مايقال عن المبررات والعقبات التي تقف في وجه السوق العربية ، وتحول دون تمكينها من السير بسرعة وبشكل فعال من قصر المدة او الظروف العامة والخاصة ومن كونها إتفاقاتعاقدياً متعدد الاطراف،يقوم على تبادل الحقوق والالتزامات بما يحقق المصلحة المشتركة او من اخضاع لتنفيذ قراراتها للاحكام الدستورية المحلية في كل بلد او من اختلاف الانظمة الاقتصادية والسياسية في البلدان الاعضاء ، والى آخر ما هنالك من اعذار ومبررات كلها لاتعفى السوق ، لاسيما في ظروفنا العربية الراهنة، من مسؤوليتها تجاهنا ولا تعفينا من مسؤولياتنا تجاهها . ويجب ان تتضافر الجهود لتطويرها الى شكل ارقى يمكنها من اداء واجباتها في التهيئة للوحدة الاقتصادية وارساء قواعدها على اسرع وافضل وجه ، وان ابقاءها في تركيبها وسير عملها الحاليين واستمرارها كما بدأت منذ نشأتها لايتفق واهدافنا في الوحدة والتحرير والتحويل الاشتراكي ، بعد ان توفرت لدينا اكثر واكثر امكانيات التقارب وتشابه التركيب السياسي والاجتماعي والتكامل الاقتصادي ، وخاصة لدى البلدان ذات الانظمة التقدمية الاعضاء في السوق . وهذا مايجعل اوضاعنا وظروفنا الراهنة تختلف كليا عن ظروف واوضاع دول السوق الاوروبية المشتركة ودوافعها واهدافها ، وان علينا ان نستوحي من الظروف الجديدة للبلدان العربية المتقدمة ومن اهدافها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في دعم السوق العربية وتصحيح اوضاعها والتعجيل بمسيرتها.ويمكن لنا من اجل هذا ان نستأنس ونستفيد ايضا من تجارب اخرى غير تجربة الدول الاوروبية المشتركة : كتجارب الشعوب والدول الآسيوية والافريقية والاميركية اللاتينية ، وعلينا ان نعي هذه التجارب وان ندرسها بعناية ونأخذ منها يتفق مع ظروف بلادنا العربية وما يساعد على تحقيق اهدافنا ، ونهمل ماهو خلاف ذلك . ويمكن ان اذكر على سبيل المثال والمعلومات وليس على سبيل الحصر تجربة قد اعطت نتائج جيدة وقربت في اوضاع البلدان الاعضاء فيما يمكن ان ندرسها ونحاول ان نستفيد منها في ضوءظروفنا وبما يخدم قضية وحدتنا ، ويعجل في سيرنا نحوها ، وكما يساعد ايضا على انجاح سوقنا العربية .

انها تجربة مجلس التعاون الاقتصادي في البلدان الاشتراكيـــة التي بدأت في عام ١٩٤٩ وقامت على أساس وحدة وتشابه التركيب السياسي والاجتماعي للدول الاعضاء والتطوير المبرمج للاقتصاد الوطني وتعجيل التقدم الاقتصادي والتكنيكي ورفع مستوى تصنيع البلدان الاقل تطورا والزيادة المتواصلة لانتاجية العمل وتوفير المواد

الأولية وتخفيض نفقات الانتاج والاستمرار في رفع مستوى حياة الشعوب . كل ذلك عن طريق تنسيق جهـــود البلدان الاعضاء في المجلس . وبالرغم من النجاحات التي تحققت حتى الآن فان المجلس يعمل باستمرار على تطوير اساليب العمل الى اشكال جديدة أفضل للتعاون واكثر تلاحما وفعالية حتى تصل الى الوحدة والدمج الاقتصادي بين البلدان الاعضاء فيه. وعملية الدمج الاقتصادي ذاتها تتطور باستمرار لاقامة البرمجة والروابط الاقتصادية الأوسع والاوثق وتوحيد الطاقات الاقتصادية للبلدان الاشتراكية بتطبيق احدث النتائج للعلم والتكنيك في سبيل استخدام الامكانيات الجديد للنمو الاقتصادي لكل بلد . وعن طريق هذا الدمج سوف يتحقق تنسيق الهياكل الاقتصادية للبلدان الاعضاء في المجلس ، ويقوم تخصص دولي يؤدي الى روابط عديدة ووثيقة بين الفروع المتماثلة في الصناعة وبين المؤسسات الصناعية المنفردة ،وستتيح تطورا واسعا للتخصص والتعاون داخل كل فرع وفي هذا المجال استطاعت هذه الدول ان تحقق تطورا وتوحيدا صناعيا متعدد القوى لكل منها مع انتاج كبير على نطاق واسع ومع تقدم تكنيكي سريع . واستطاعت ان تزيل الفوارق الموجودة سابقا في مستوى النمو الاقتصادي وان تحقق وتائر نمو مرتفعة ، بشكل ساعد على التعادل في مختلف المستويات الاقتصادية كما يتبين من اتساع المبادلات التجارية بين هذه البلدان ، والتي تزيد عن ٦٠ ٪ من قيمة مبادلاتها الاجتماعية ، ومن ارتفاع المعدلات السنوية الوسطية لنمو الانتاج الصناعي في هذه الدول مابين ١٩٥١ — ١٩٦٨ حيث بلغت في بلغاريا ٦ ر ١٣ ٪ وفي المانيا الديموقراطية ١ ر ٩ ٪ وفي بولونيا ١١ ٪ وفي رومانيا ١٣ ٪ وفي الاتحاد السوفييتي ٥ ر ١٠ ٪ وفي تشيكوسلوفاكيا ٦ ر ٨ ٪ وسطيا في السنة .

وفي عام ١٩٦٨ ازداد اجمالي الانتاج الصناعي في هذه البلدان بالنسبة لعام ١٩٦٥ بمقدار ٢٨ ٪ ، وكانت الزيادة في بلغاريا بنسبة ٤٢٪ و ٢٣٪ في هنغاريا و ٢٠ ٪ في المانيا الديمقراطية و ٢٣ ٪ في منغوليا و ٢٦٪ في بولونيا و ٤٠ ٪ في رومانيا و ٢٩٪ في الاتحاد السوفييتي و ٢٣٪ في تشيكوسلوفاكيا . هذا في الوقت الذي بلغ فيـــه معدل النمو الاقتصادي لدول السوق الاوروبية المشتركة خلال عام ١٩٦٨ مقدار ٥٪ و ٥٫٥٪ في عام ١٩٦٩ .

ان من سمات عصرنا الاساسية الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وان تحولات اقتصادية واجتماعية هامة وعميقة قـــد جرت في أكثر بلدان وطننا العربي . وان قوى وانظمة جديدة وتقدمية قد قامت فيها وفتحت آفاقاً جديدة واسعة أمام السوق العربية

المشتركة علينا ان تلجها وتتكيف معها لتنطلق بوجه جديد واسلوب جديد وعقلية جديدة تتفق والظروف الجديدة . وعلى جميع المسؤولين والمختصين ان تتضافر جهودهم لدفعها في الطريق الافضل ورفعها الى الشكل الأمثل الذي يساعدها على تحقيق مهامها لا في زيادة وتنشيط حجم المبادلات التجارية فحسب ، وانما في تنسيق الانتاج واقامة المشاريع الكبيرة والمشتركة وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية على المستوى العربي بوتائر عالية وتوثيق الروابط الاقتصادية بين البلدان العربية ذات الانظمة التقدمية ، بما يساعد على تحرير وتطوير وتوحيد هذه الانظمة وتحقيق تقسيم العمل العربي بينها ورفع مستوى الحياة لجماهير شعبنا العربي فيها وارساء الوحدة الاقتصادية لتكون القاعدة المادية الصلبة لوحدتنا العربية المنشودة .

الدم عماد الخلاص

محاولة تحليلية للظاهرة السرحانية (١)

محمّد الزايد

« لم يعد السكوت ممكناً [٢] » ..

مات عصر العماء والصمت ..

الكل مسؤول ..

في منحنى تاريخ يقف شعب ليصفي حسابه مع المواقف ..

يوجه تساؤله ونداءه الى العالم ،

ولكل حرية التبني لأي موقف ،

والكل مسؤول عن موقفه .

لقد برأ العظيم (راسل) نفسه قبل رحيله الاخير ..

كما فعل العظيم (توينبي) عن وعي معرفي حر مازال يبرره حتى الآن ..

من يدعي الصمم فليسمع ..

من (سرحان) ، الى خطف الطائرات ، الى الحروب المباشرة ضد وجود قام على الغاء وجودنا ، إن هي إلا محاولات للاسماع ، والبحث عن تأكيد ومساواة ..

---

(١) « الظاهرة السرحانية » مصطلح استنبطته من اسم « سرحان بشارة سرحان » للدلالة على نقطة العنف القصوى في فعل تأكيد الوجود للانسان الفلسطيني .

(٢) روجيه غارودي « الحقيقة كلها »

الاهم انسان لايعيش عصره .

ان انسان العصر في ميزان .. « انسانيته وهي في وضعية التساؤل .

« لو كنتم عميانا لما كان عليكم خطيئة .

ولكنكم تقولون اننا نبصر . فخطيئتكم ثابتة »[1] .

* * *

يعبر الشعب الفلسطيني مخاضات دم . بعد أن اصبحت لحظــة وجوده قطرة الدم ، وميلاده عبر سقطة الموت .

فمن هذا الانسان الذي يؤدي هذا المستوى « من الفعل » ؟

هذه المحاولة للكشف عن « المعنى » في بعض ابعاد الظاهرات السلوكية للانسان الفلسطيني والتي تمثل ما أسميها « الظاهرة السرحانية » أقصى مدى يمكنها الوصول اليه . حيث يصبح « العنف السكلي » الطريق الا كثر احتمالا لفعل وتأكيد الوجود » .

محاولة تقترب من « العلمانية » ، ولا تدعيها كاملة ، رغم ارادة الوعي بإبعاد العواطف والمشاعر الخاصة اكبر مسافة ممكنة عن مساحة التحليل .

ذلك لأن التحييد التام لأية ظاهرة انسانية من الأمور التي تكاد تصل الى مستوى الاستحالة لكون الانسان ذاته هو الظاهرة المدروسة . لذا . لايمكن لانسان أن يوضع (يضع نفسه أمامه موضوعاً مستقلا تماماً يبحثه) ذاته بصورة كاملة .

رغم الصعوبات القائمة والمحتملة فان امكانية البحث والتحليل المقتربة من العلمية تظل قائمة بل مبررة ومشروعة . وللوصول الى مستوى الدقة في السياق

(١) إنجيل القديس يوحنا ، الفصل التاسع ، الآية ٤١ .

التحليلي لابد من تبيان التحددات الاساسية الخاصة ضمن الاطار العـــام ـ أي « موقع ووضع »[5] لهذا البعض من الظاهرات السلوكية للانسان الفلسطيني كخلفية اثرت ومازالت في تكوين المنحنى النفسي لهذا الانسان .

الموقع والوضع

تتميز لحظات « المصير » الراهنة في حياة « امتنا » و « شعبنا » ـ وربما كل أمة وشعب ـ بارتداد تساؤلي عن « الذات » . والتساؤل يعـــني « محاولة الفهم » والكشف عن أبعاد مازالت مغمضة في « الذات القومية » بمعنى آخر . إن التساؤل عن « الذات » يقود الى « التاريخ » في محاولة البحث عن ماهية أو معنى الذات ، للانطلاق منها الى مستقبل يحدده شعار راهن معلن « وحدة » « عودة » . والتساؤل يحتمل الطرح من أي إنسان وربما كل انسان . انما تختلف أبعاد عمقية التساؤل باختلاف « الموقع » و « الوضع » الذي يشغله هذا الانسان او ذاك في « وضع وموقع » الأمة العام . ولعل أهم تحدد أولي للانسان الفلسطيني هو انتماؤه الوجودي للامة العربية ، انما بوضع متميز « خاص » بحكم واقعته التاريخية المعاصرة ، الخروج الأول سنة ١٩٤٨ .

وأقصد بالوضع الخاص النقطة الاكثر حساسية « وتوترا » ضمن الاطار العام ، كما القلب أو الرأس في الجسد البشري اكثر « تميزا » وخصوصية بالنسبة لواقعية البقاء الانساني ، لذا فالترابط تفاعلي شرطي بين الطرفين . العروبة شرط الفلسطينية ، والفلسطينية شرط العروبة . والتعمق الأبعد في سياق موضوع البحث يوضح هذه السمة التفاعلية الشرطية .

لحظة الفصم

كانت سنة ١٩٤٨ « لحظة الفصم » بين حدي الوجود (لكل شعب) ، المكان والزمان ، الارض والتاريخ .. « اقتلاع واستلاب من المكان » : الارض ، وهي البعد التجسيدي الملموس لأي شعب ، وبقاء في الزمان : التاريخ ، وهو البعد التمثيلي القائم في كل فرد من افراد الشعب . والمدى الاقتراني لحدين — الزمان والمكان — شرط واقعية خصوصية الوضع الحقوقي في البقاء أو الوجود لأي شعب .

الا ان البقاء الوجودي في التاريخ يعني « الوجود في فكرة » بينها وبين الوجود المتجسد فاصل . هوة ، أي بقاء وجودي نصفي . من هذه النقاط يمكن ان تفهم القضية الكبرى في فعل الوجود الفلسطيني « ثورة الجيل الفلسطيني المعاصر »[1] الذي لايعرف ارضه و « معنى » و « قصد » هذه الثورة المركزة . بكلمة واحدة لاتقبل المساومة ويجب ان لاتقبلها ، لان قبول المساومة الغاء أحد طرفي الوجود وهو « العودة » .

هكذا بدأت الرحلة الاغترابية للانسان الفلسطيني ، فمن « لحظة الفصم » — الاقتـــلاع — ، اغتراب عن الأرض ، تولّد الوضع الخاص المتّسم بالتوتر والتحسس بحكم اغترابه المكاني وتمزيقه الاجتماعي التشتتي الذي تناثرت اجزاؤه بين دول متعددة تعاني هي بذاتهـــا من تمزق خلفه الاستعمار تجسّده الأسلاك الشائكة التي طوقت أجساد الشعب الفلسطيني ، واستنزفته مشكلة بعداً اغترابياً

---

(١) تناقش الثورة الفلسطينية الراهنة بجيلها الذي لايعرف أرضه ، موضوعة الاستعمار الأساسية التي تقول « الكبار يموتون والصغار ينسون » .

آخر على مستوى الامة . أما على المستوى العالمي فلم يلق سوى الالغاء الوجودي الكامل بعد الاعتراف بقيام اسرائيـــل . بذلك تضاعف الوضع الاغترابي من « منفى المكان » – الوطن – الى « منفى الامة » ، أو « المنفى القومي » بمصطلح الاستاذيوسف الخطيب[1]، ثم الى «منفى الانسانية» . ان هذا التضاعف الاغترابي ذو الابعاد الثلاثة الانكاري والعدمي السالب في بعديه الاول والثالث لم يعشه شعب في التاريخ حتى اليهود انفسهم اذا اعتبرناهم انموذجاً « للتيه والضياع » .

ضمن هذه الابعاد الوجودية من الانكار الى الخروج ، ومن معـــايشة الخيام حتى التشتت ، من المجازر المادية الى المجازر المعنوية ، نتساءل ترى ما هي البنية النفسية المحتملة لهذا الانسان ، خاصة الطفل في طور التكوين ؟

يضعنا هذا التساؤل على عتبة الموضوع تماماً .

ظاهرتا (عنف الفعل) و (فعل الانتظار)

تنطلق محاولتي التحليلية السيكوفلسفية من موضوعة تشكل اس المحاولة وهي « ان علينا أن نرى الظواهر ثم نعرفها ، لا أن نعرف الظواهر ثم نراها »[2]. بمعنى أن علينا أن لا نقف عند نتيجة السلوك في عملية الادراك والتقييم ، بل نتأدى الى دوافع هذا السلوك . فالأهمية الاكبر – علميا – لاسباب الفعل لا لنتائجه، التي ليست سوى المدخل لمحاولة الفهم الواعي والمدرك . وفي اعتقادي ، وكما تدلل وقائع عمليات التقييم « لفعل العنف الفلسطيني » ، أن آفاق التحليل لم تتجاوز « القوالب الجامدة » التي تعرف الظواهر ثم تراها . وهي عملية ضد « العلمية » ونقيضها العكسي تماماً . حتى أدعياء الوعي يقفون في منتصف الطريق في موضوعة الوعي السابقة حيث يرون الظواهر لكنهم لايحـــاولون فهمها كما هي بأبعادها

(١) يوسف الخطيب مقدمة « ديوان الوطن المحتل » .

(٢) مجلة الفكر المعاصر العدد ٥٥ عام ١٩٦٩ ص ١٣ .

وخلفياتها المؤثرة التي كونتها ، بل يرونها ويفهمونها كما يريدون هم بعقلية «القوالب الجامدة»[1] والافكار المسبقه الدوجماطيقية .

أثارت بعض « افعال العنف الفلسطيني » زوابع تراوحت بين الاستنكار والرفض (وهم الاكثرية) والتأييد الحذر (الاقلية) ، ومحاولة الفهم الواعية والانسانية (قلة القلة) . ولم أعرف منهم سوى (ارنولد توينبي) في محـاولته التحليل وفهم ابعاد سلوك العنف للانسان الفلسطيني ذي الاغتراب المتضاعف ثلاث مرات على مدى ثلاثة مستويات فوق افق زمني طوله ٢٢ عاماً .

ولا تعنيني هنا جميع احكام القيمة التي لاتستند الى سوء الفهم فحسب بل الى عدم محاولة الفهم أصلاً ، وهي اقرب الى رد فعل العاطفة المتسرعة التي تقف عند سطوح الظواهر بإعلان اقرب الى الغباء والكثافة الذهنيـة . وسواء تراوحت بين الصراخ أو الهمس ، بين هواجس النفس أو على صفحات الجرائد والمجلات الكبيرة والصغيرة المهمة أو التافهة ، فان المنطلق الاكثر دقة وعلمية ، كما أوضحت ، ليس إنكار الفعل بل محاولة فهمه . وبالتالي بحث العوامل التي تحول دون تكرار الوقوع فيه . ولا يمكن للانكار مهما تضخم مقداره « الكمي » حتى وإن وصل تضخمه على مستوى العالم ، أن يلغي نتيجة الفعل التي وقعت ، أو يضيء نقطة الغموض في فعل انساني ما . ولا اقصد هنا بالانكار « الرفض الواعي » المستند الى فهم معين .

وأقول دون تجن كبير انه لم يلحق إجحاف معرفي يعي نفسه أو يحاول أن يكون كذلك مثل الاجحاف الواقع على « فعل العنف » للانسان الفلسطيني من اغتيال روبرت كنيدي الى عمليات اختطاف الطائرات الاخيرة .

---

(٢) المصدر السابق .

ولنمعن ونسترجع بتبصر اكثر وأعمق ـ معنى هذا الفعل ـ من مستوى الشائعات وصفحات الجرائد اليومية أو الاسبوعية .

ولا بد من الرجوع الى أهم بُعدٍ وجودي ، تأدينا اليه من مجمل التحليل السابق كله . ان الانسان الفلسطيني يعاني في كل دقيقة وساعة ويوم منذ اثنتين وعشرين سنة ، يعاني « النفي » وبالتالي الوضع الاغترابي في مستوياته الوجودية ذات الابعاد الثلاثة خاصة في طرفيه الاكثر حدة ، « منفى المكان » من جراء استلاب الصهيونيـــة لأرضه ، و « منفى الانسانية » نتيجة الالغاء والمسح الوجودي الكامـل من التـــاريخ وتقييمه بمنظار الشفقة عبر مساعدات المنظمات الدولية .

ان رد الفعل الاساسي والطبيعي جداً ، محاولته اثبـات وجوده ، الذي يلغيه ويرفضه الآخرون . ومن الجائز والمحتمل الأكثري حسب قـانون « الفعل ورد الفعل » أن تزداد حدة رد الفعل ومداه التوكيدي ، بازدياد قوة فعل الرفض الانكاري . فاذا رفض انسان ما سماع ندائك على مستوى التوتر العادي صوت، فانك تصرخ ، وان لم يسمع ، فتركض باتجاهه لتنبهه بيدك .

وتمثل ماأسميه « الظاهرة السرحانية » حد التصرف الاقصى لفعـــل التأكيد الوجودي للشعب الفلسطيني على مستوى الانسانية . بمعنى آخر هو تنبيه باليد . والشعب الفلسطيني يتبنى هذه الرؤيا بصورة جماعية تقريباً . يتضح ذلك من اطلاقه كلمة « الفداء » على ما سماه الآخرون ، قتلاً .

« سرحان بشاره سرحان .. فدائي .. وليس قاتلا » .

لقد واجه سرحان بشاره سرحان ابباشرة يصعب تخيل درجة عنفها وضعية الانكار والسلب الوجودي في أكثر مناطقها اتقاداً وقوة .. في « مريكا » .

امريكا التي تشغل اكبر مساحة في دائرة العـــداء والانكار الوجودي والحقوقي للشعب الفلسطيني والكراهية للأمة العربية .

لذلك ولد هناك التحدي بين طرفيه الأعظم تناقضاً .

كان سرحـان « فرد من شعب ، يرفض وينكر وجوده ــ وكل فرد يمثل شعبه ــ لذا لم يكن سرحان فرداً من شعب بل كان الشعب كله بمعنى ما ، تماماً كما كان الطرف العدو الآخر ، كنيدي . يضاف الى ذلك ان كنيدي « لم يكن فرداً » من شعب يمثل شعبه على نفس مستوى سرحان فقط ، بل كان مرشحاً للصفة الرسمية الكبرى والاكثر تمثيلا ظاهريا للشعب او الامة « رئاسة الجمهورية » . هنا لايمكن اختراق الصمم الانكاري الا بتفجيره . هنا فرض الوجود التأكيدي بتحطيم الوجود الانكاري . لم يكن ــ النفي والانكار ــ ماعاناه سرحان فقط ، بل الاحتقار والتهجم الاستعراضي العدائي الذي لم يوجد له مثيل على الانسان الفلسطيني والانسان العربي عامة .

كان النفي نفياً للعروبة واحتقاراً لها بنفي الفلسطينية وانكارها . كان سرحان في لحظة دفاع وهجوم عن فلسطينيته وعروبته حين اطلق رصاصاته (لقد فعلت ذلك من اجل وطني) ، تماما وعلى مستوى آخر كمحمود درويش في دفاعه وهجومه امام وضد « صهينة » فلسطيني بصرخته : « سجل انا عربي » .

من نفس منطلقات التحليل يمكننا فهم عمليات خطف الطائرات . على ان لايغيب عنا ملاحظة اساسية تناساها الغالبية العظمى من الناس وهي ان خطف الطائرات لم يتوجه اصلا الا للطائرات الاسرائيلية التي نحن في حالة حرب معها . أما اتساع مد فعل الاختطاف لطائرات الدول الاخرى فلم يكن ليحدث لو أن هذه الدول التزمت موقف العدل والحياد الفعلي لا كما ادعت سويسرا مثلا التي ادانت الفدائيين ورفضت الافراج عنهم بكفالة وضمان من الحكومة الجزائرية .

بينما برأت الضابط الاسرائيلي « مردخاي » وأطلقت سراحه بكفالة مع ان شهود الاثبات اوضحوا مسؤوليته الكاملة عن قتل أحد الفدائيين وهو مجرد من السلاح .

كانت عملية الخطف الأولى لحظة أساسية في « تطور الفعـــل للانسان الفلسطيني » في محاولته للخروج وتحطيم دائرة « الاغتراب والنفي » على مستوى الانسانية والذي تتحمل مسؤوليته جميع الدول خاصة في اوربا وبريطانيـــا وامريكا .

ان الفعل على مستوى البعد العالمي أمر اساسي وجوهري لأي شعـــب فكيف الحال مع الشعب الفلسطيني الذي يفعل ضمن « وضع خاص » وشروط يصعب وجود شبيه لها وان تشابهت في بعض وجوهها مع بعض وقائع عاشتها شعوب اخرى .

ان العالم لايرفض ان يسمع ، بل ينكر وجود الصوت والمتحـــدث . وليس هذا فحسب ، بل يعطي الوجود القائم على الغاء وجوده (اسرائيل) خبزه وسلاحه .

لذا كان لابد من اسماعه « بفعل » يجاوز » ولااقول يعادل » صممه الانكاري .

ولنترك الوصف التحليلي وندخل في البنيـة السيكلوجية للفدائي الذي يقف في طائرة مخطوفة بيده قنبلة يهدد بتفجيرها بنفسه وبالاخرين اذا لم تتحقق مطالبه والتي محورها ومنطلقها الاساسي « اسماع صوته » – المسماة بلغة الصحافة عملية دعائية – وبالنتيجة « اثبات وجوده » الانساني ومطالبة الاخرين بالاعتراف وتطبيق المبادىء الانسانية العامة المتعارفة على هذا الوجود . ألا يعني عنف الفعل

واثبات الوجود بإسماع الصوت عن طريق التهديد بالتدمير الكلي « للذات » و « الآخر » ، الا يعني ان هذا الانسان وصل الى لحظة في وجوده تشابه بمعنى ما - مع حفظ الفوارق الاساسية - لحظة شمشون في المعبد ؟ . لحظة تأكيد الوجود المنكر بتدمير طرفي فعل التأكيد « الأنا » و « الآخر » . عندما ينكر الآخر « الأنا » بصورة كاملة يصبح فعل « الأنا » الوحيد تقريباً « انكار الانكار » بتدمير « الآخر والأنا » في مساواة مشروعة . لأن فعل الانكار يضفي على ذات المنكر شعوراً بالتفوق والعلو ، بل ان هذا الشعور منطلقه الاساسي . لذا ، بالتحليل الاخير ، تبحث سرحان بشارة سرحان (بغض النظر عن الموافقة عن فعله او رفضه) بحث عن المساواة الانسانية في الوجود ، تماماً كما أن فعل خطف الطائرات بحث عن المساواة في الحقوق .

هنا ، قد يتحدث بعضهم بنبرة مرتفعة تدعي الانسانية « لقد حلت القوة محل القانون في اعمال القرصنة الجوية » . مهلاً ، لنتريث ونتبصر بعد تحليل هذا الصراخ . بادىء ذي بدء ، ان كلمة « قرصنة » خاطئة ومرفوضة تماماً ، لأن « القصد » الأول والاخير لفعل القرصان « الكسب المادي الفردي » غير المشروع عن طريق القوة ، فما هو وجه المقارنة بينه وبين « القصد والكسب » الذي يحصله الفدائي ؟ .

أما حلول القوة محل القانون فهذا مدعاة للدهشة ، أليس وجود اسرائيل الذي صنعته أوربا وبريطانيا على وجه التخصيص وامريكا على مستوى الربط العضوي ، أليس هذا الوجود الذي قام على الغاء وتمزيق وجود شعب أحلالاً للقوة محل القانون ؟ . والقرصنة ليس الجوية بل التاريخية والانسانية ؟ ان وجود اسرائيل فعل قرصنة التاريخ والانسان سماه الغرب بالامر الواقع . أما القانون فان من يتحدثون به هم أبعد الناس حقاً بالحديث عنه ، أي قانون حاكم بريطانيا وأمريكا

وبعض دول أوروبا على جريمة الالغاء الوجودي والآلام الحياتية والقهر الانساني الذي عاناه ويعانيه الانسان الفلسطيني منذ اثنين وعشرين عاماً ؟.

اذا كان القانون هو العدالة ، والحق فأين عدالة حق هذا الشعب الذي اعترفت به الامم المتحدة منذ اثنتين وعشرين سنة ؟. إن أي مواطن أوروبي ، بريطـــاني ، أو امريكي مسؤول على مستوى الانسانية بمساعداته الاقتصادية والسياسية والعسكرية لاسرائيل ، وتزداد درجة مسؤوليته بازدياد موقع المسؤولية الذي يشغله ، فالمفكر مثلاً أكثر مسؤولية من المواطن العادي .

اننا نرفض الحوار مع العالم والبندقية أو القنبلة في أيدينا ، انما هل ترك لنا العالم وضعية اخرى للحوار ؟.

ان شباب اليوم خاطفو الطائرات هم اطفال آلام الأمس ، أطفال النفي الانكاري القهري ، ترى ما الذي كانت تنتظره بريطانيا وامريكا نتائج فعلهم الأساسي وجود اسرائيل ؟ أين القانون في وعد بلفور وأي حق كان لبلفور أو جورج الخامس في منح الأرض الفلسطينية للصهيونية ؟. أين صوت القانون في مذابح دير ياسين ، وكفر قاسم ، والآن في غزة والقدس والخليل ؟ ما الذي استطاعت الامم المتحدة فعله بادانتها لاسرائيل طوال اثنتين وعشرين سنة ؟ تلك بعض التساؤلات ، ولمن اجابتها عند كل انسان ، أي انسان .

انجيل الغضب والعنف الحاضر جيل عمره النكبة ، جيل اللجوء والتشريد المادي والمعنوي ، جيل القيد والنفي . جيل آلام تمزّقه خلقت وضعاً ومصيراً يستحيل الخلاص منه الا بحمل الصليب . ذلك لايعني انطفاء صوت الحق والقانون

بقدر ما يعني أن الحق والقانون مع الطرف الذي يتحول الى « ذبيحة »[1] من أجل الحق والقانون ولا يدعيه بالصراخ فقط .

استطاع العادلون من ذوي الاقلام الواعية أن يفهموا . مثل (توينبي) و (راسل) في لحظات عمره الأخيرة . وان بعض جماعات « الهيبيز » يرفضون العمل وهو القيمة الانسانية العظيمة لئلا يتحول عملهم الى « فائض قيمة» يكدسها الرأسماليون ويحولونها الى اسلحة قتل توجه الى الشعوب الاخرى في فيتنام وفلسطين وافريقيا وامريكا اللاتينية ..

ألا يفهم هؤلاء معنى الحق والانسانية والعدالة بشكل يستحيل مقارنته مع ذوي الحقائب السوداء والأقلام الحمراء ؟

لقد فهموا معادلة المسؤولية الانسانية . مساواة الانسان للانسان . فالانسان الاوربي « البريطاني أو الامريكي لا يفوق الانسان الفيتنامي أو الافريقي او العربي الفلسطيني . ولذا فالمسؤولية مسؤولية الجميع .

لقد مات عصر الصمت وعلى كل انسان أن يعلن موقفه في زمن اصبح فيه « الدم عماد الخلاص » للشعوب المقهورة .

---

(١) تشبيه انجيلي ، يقصد به « السيد المسيح » الذي قدم نفسه « ذبيحة » لخلاص العالم .

قطري بن الفجاءة
والموت كمداً !

أحمد عبد المعطي حجازي
القاهرة

حين أخذت في قراءة هذه القصيدة التي أقدمها للشاعر القديم قطري بن الفجاءة ، بهرني مطلعها الذي يقول فيه :

يارب ظل عقاب قد وقيت بها   مهري من الشمس والأبطال تجتلد

صورة رائعة لفارس قديس يدخل معركة مقدسة ، فهو يتقدم الى عدوه ممتطياً صهوة مهره في شمس الظهيرة ، وقد حلق فوقه طائر العقاب الضخم يتبعه ويمد ظل جناحيه عليه وعلى مهره .

أليست هذه هي صورة القديس الفارس في كل دين .

بلى ! فهي صورة الإله الفرعوني المنتقم لأبيه حورس كما تقدمه لنا التماثيل والصور وقد نشر فوقه الصقر الحارس جناحيه أو أحاط رأسه بهما ، وهي

صورة القديس جريس في التراث المسيحي والملاك المجنح فوقه ، وهي صورة النبي العربي ، وفرسانه المسلمين في بدر والملائكة فوق رؤوسهم تظللهم وتضرب بسيوفهم . فهي صورة الانسان وحارســـه الإلهي تتمثلان في طائر أو غمامة أو تميمة .

وروعة الصورة الشعرية تأتي من أنها تصف مايراه الشاعر لا مانراه نحن، فالحقيقة أننا لانصدق هذه الصورة اذا أخبرنا بها غير شاعر ، لانصدق أن تقوم علاقة بين الفارس على الارض والعقاب وهو من سباع الطير التي تحلق في أجواز الفضاء ، لكن الشاعر يفتح لنا باب تجربة عاناها في داخله وواقع قـــام في خياله وامتلأ به وجدانه ، فدخل المعركة مؤيداً بهذا الطائر السماوي الضخم ، انه يرى مالانرى ، ولو أنه وصف لنا مانراه لما كان شاعراً ولما استحقت قصيدته ان تعيش في الاجيال وأن ننظر فيها الآن .

هكذا فهمت مطلع القصيدة لأول وهلة ، لكنني حين نظرت في هامش المرجع الذي قرأت فيه القصيدة ، وهو كتاب « شعر الخوارج » الذي حققه الدكتور احسان عباس الاستاذ بالجامعة الامريكية في بيروت وبذل فيه جهداً ضخماً جمع فيه أشعار الخوارج المتناثرة في مائة كتاب قديم وحققها وعلق عليها وكتب لها مقدمة مفيدة ، أقول انني حين نظرت في هامش هذا المرجع وجدت الدكتور احسان يقول في شرحه لمفردات القصيدة أن «العُقاب» هي الراية، فهو اذن لم ير في مطلع القصيدة الا تسجيلا لما يحدث في واقع الحياة . ولم يصدق الشاعر الا كناقل لخبر يستطيع السامع أو القارىء أن يؤمن على وقوعه .

ولقد تبينت أن كلمة « العُقاب » تعني ضمن معانيها الكثيرة (الراية) ، لكنها تعني طائر العقاب أيضاً فأي المفيدين أراده الشاعر أو أرادته القصيدة على

الأصح ، فقد يريد الشاعر معنى ، لكن هذا المعنى يتحول من خلال علاقاته المتشابكة بالقصيدة ككل الى معنى آخر ؟

لاشك ان الاجابة في القصيدة ، لكن القصيدة لغـــة ، ونحن للاسف لانعرف من هذه اللغة الا القليل فلا مفر من الرجوع الى المعجم .

كنت أبحث عن مادة « ع ق ب » في قاموس « لسان العرب » لابن منظور ويدي على قلبي مخافة أن يظهر لي مايخالف ظني في فهم مطلع القصيدة ، كأن اكتشف مثلاً أن طائر العقاب يذكر ولا يؤنث ، وعندئذ يكون معنى الكلمة في البيت هو الراية بغير احتمال آخر ، فالضمير الذي يعود على العقاب في البيت هو ضمير التأنيث في قول الشاعر « قد وقيت بهامهري من الشمس » وعندئذ لايكون البيت الا وصفاً نثرياً لفارس محارب تحت ظل راية . أو ان يجوز التأنيث والتذكير في طائر العقاب فيكون المعنى الذي فهمته مجرد احتمال اضعف من احتمال المعنى الذي فهمه الشارح ، لأن الراية لايجوز فيها إلا التأنيث . ولو أن الشاعر كان يقصد طائر العقاب فلماذا لم يستخدم ضمير التذكير ؟

لكن القاموس لم يخيب ظني . فطائر العقاب في القاموس لايجوز فيه الا التأنيث ، ومع هذا يظل الشك قائماً فالراية ايضاً مؤنثة . فعلى أي أساس يقوم الترجيح ؟

لقد أعطاني القاموس أيضاً أسباب الترجيح فأنقذ الصورة العبقرية التي رسمها الشاعر من السقوط في النثرية .

إن القاموس يتحدث عن مادة « ع ق ب » في مايقرب من ثلاث صفحات من القطع الكبير هي في الحقيقة حدود الوجود الحي الذي كانت تعيشه كلمة

« عقاب » ومادتها الاصلية في وجدان الشاعر القديم ووجدان معاصريه ممن كانوا يعرفون لغتنا الجميلة التي فقدنا معظمها ، ولم نستطع حتى الآن رغم مانبذله ان نستعيد مافقدناه .

وبحسبي أن أقدم لك من هذه المادة هذه المقتطفات .

فالعقاب طائر من العتاق مؤنثة ، ويقول ابن الأعرابي : عتاق الطير العقبان وسباع الطير التي تصيد والذي لم يصد الخشاش،والعقاب الراية ،والعقاب الحرب ، والعقاب علم ضخم ، وفي الحديث أن راية النبي عليه الصلاة والسلام كان اسمها العقاب ، والمعقبات الملائكة ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وملائكة النهار تعقب ملائكة الليل . والعقاب فرس مرداس بن جعونه ، والعقاب صخرة ناتئة في عرض الجبل .

والقاموس لم يوضح ان كانت الراية تسمى عقاباً من الأصل أم من باب تشبيهها بطائر العقاب ، وأنا أظن، وبعض الظن اثم ، أن كلمة العقاب هي الرمز اللغوي الأصلي لطائر العقاب ، وقد اكتسبت الراية من الاسم عن طريق التشبيه كما يطلق لفظ النهد على الصدر الناهد ، مع أن النهد في الأصل هو الموضع البارز في الرمل ينبت فيه العشب ، فاذا أضفنا الى هذا الظن (أن الأصل في معنى العقاب هو الطائر ، تلك الايحاءات الدينية والفروسية الكثيرة التي تنطوي عليها كلمة عقاب ومادتها والتي كانت حاضرة بلا أدنى شك في وجدان المتحدثين بهذه اللغة قديماً الى جانب ماتضيفه القصيدة ذاتها للكلمة وهذا هو الأهم ، رجح لدينا أن الكلمة في بيت قطري بن الفجاءة تعني طائر العقاب أولاً وان كان يمكن أيضاً أن توحي بالراية والحرب والملاك الحارس والفرس ، فطائر العقاب الذي رآه قطرى لم يكن طائراً حقيقياً ، بل كان رسول السماء اليه وكان العلامة والبشارة

والدرع والتعويذة ، وما دام العقاب هنا ليس حقيقة فلا بأس من أن يكون قطري قد رأى أيضاً راية النبي وأحس برفيف أجنحة الملائكة وصور له يقينه كأنه صخرة في الجبل تتكسر عليها هجمات الأعداء . وسمع صهيل فرس مرداس ابن جعونه (ولست أدري ان كان مرداس هذا أخاً لقطري أم لا ، فالفجاءة والد قطري اسمه جعونه كما يقول صاحب كشاف الأعلام) .

الكلمة تحتمل كل هذه المعاني اذن ، والصورة التي كنا نراها بسيطة ، أصبحنا ندرك الآن كم هي غنيـــة مركبة ، فالأرض والسماء قد اجتمعتا في فارس متصل الأسباب بالله والنبي والقبيلة والفرس ، وكل هذا الغنى الذي طالعناه انما هو من نظرة سريعة في قاموس . وهذا ما يجعلني أعتقد أننا نخطىء كثيراً ونحن نقرأ أدبنا القديم حين نجعل همنا من القاموس أن نبحث فيه عن المرادف الذي نعرفه للكلمة الغريبة التي لانعرفها ، ان مثل هذا الجهد لايقدم لنـا الا صورة معروفة بدلاً عن الصورة المجهولة للكلمة نظل على جهلنا بمعناها الحقيقي أو بوجودها الكامل مالم نطلع على أصل مادتها ومشتقاتها والمعاني المختلفة التي تولدت عنها من ناحية ، ومن ناحية أخرى على مكانها في العمل الفني الذي تتنفس فيه وتكتسب من خلال علاقاتها المتشابكة به وجوداً خاصاً . الكلمة اذن كالانسان يعرف من طريقين : طريق جنسه من ناحية وطريق ملامحه الخاصة من ناحية أخرى ، وضمن هذه المساحة توجد الكلمة وجودها المركب الذي كان القدماء يعرفونه ويتمثلونه فيما أبدعوا وكتبوا . اننا في العمل الفني لانواجه مفردات وانما نواجه عالماً من الصور والايحاءات والايماءات والتواريخ . نواجه الكلمة في بيئتها ، من هنا تكون المشتقات والمعاني المختلفة للكلمة الواحدة

ضرورية بقدر مايكون المعنى الأصلي ضرورياً ، وفي مجال هذه القصيدة بالذات وعند دراسة هذا الشاعر بالذات تصبح هذه الضرورة أكثر الحاحاً .

وقطري هو (أبونعامة) بن الفجاءة (واسمه جعونة) بن مازن ابن يزيد الكناني المازني التميمي . من رؤساء الأزارقة (الخوارج) وأبطالهم ، من أهل « قطر » . كان خطيباً فارساً شاعراً . استفحل أمره في زمن مصعب ابن الزبير لما ولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله بن الزبير ، وبقي قطري ثلاث عشرة سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة وامارة المؤمنين ، والحجاج بن يوسف يسير اليه جيشاً بعد جيش وهو يردهم ويظهر عليهم ، وكانت كنيته في الحرب أبانعامة (ونعامة فرسه) وفي السلم (أبامحمد) .

قال صاحب « سنا المهتدي » في وصفه : « كان طامة كبرى وصاعقة من صواعق الدنيا في الشجاعة والقوة وله مع المهالبة وقائع مدهشة ، وكان عربياً فصيحاً مفوهاً وسيداً عزيزاً ، وشعره في الحماسة كثير » ، وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها :

أقول لها ،وقد طارت شعاعا
من الأبطال ويحك لن تراعي

وكان قطري يناور أعداءه كثيراً حتى اتهمه بعض الخوارج بالهرب والتردد ، وقد اختلف المؤرخون في مقتله ، فقيل عثر به فرسه فاندقت فخذه فمات وجيء برأسه الى الحجاج ، وقيل توجه اليه سفيان بن الأبرد الكلبي فقاتله وقتل في المعركة بالري أوبطبرستان .

قطري اذن شاعر فارس خارجي ، بل هو من أبطال الخوارج وزعمائهم الذين تقلدوا منصب الامامة فأصبح يدعى فيهم بأمير المؤمنين .

فمن هم الخوارج ؟

الخوارج جماعة من رجال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ثاروا عليه حين قبل مبدأ التحكيم بينه وبين معاوية والي الشام الذي تمرد عليه ، وعدوا قبوله للتحكيم دليلاً على شكه في شرعية امارته للمؤمنين وتخليا عنها ، ألم تبايعه الأمة كلها فكيف يعلق مصيره كأمير منتخب من مجموع المؤمنين على كلمة يقولها حكم بينه وبين وال متمرد عليه وعلى الأمة التي اختارته ؟

لقد رفع الخوارج شعاراً يعبر عن عقيدتهم هو « لاحكم إلا لله » أي للقرآن والسنة لا لعلي ولا لمعاوية . أما معاوية فهم من الأصل يعدونه متمرداً خارجاً على الاجماع ، وأما علي فقد رأوا أن من حق المؤمنين الذين بايعوه أن يخلعوه لأنه حين قبل التحكيم خلع نفسه ، بل لقد حاربوه أيضاً ثم قرروا اغتياله هو والخصم معاوية والحكم عمرو بن العاص ، وان لم ينجحوا إلا في قتل علي بن أبي طالب وحده ، بينما نجا الآخران .

وهكذا أصبح الخوارج أعداء ألداء لكل صاحب دولة من الدول التي عاصروها ، فقد حاربوا علياً كما حاربوا معاوية وخلفاءه الأمويين ، كما حاربوا أيضاً عبد الله بن الزبير وأخاه مصعب واليه في العراق .

والغريب أنهم لم يحاولوا أبداً انشاء دولة فهذا لم يكن هدفهم ، بل كان هدفهم رد الحكم لله أي رد المسلمين الى تحكيم مبادىء الاسلام التي كانوا يرون أنها تجعل الأمة مصدراً للسلطة ، بل لقد تطرفوا في تقديس هذا المبدأ حتى رأوا أن الأمة ليست بحاجة الى حاكم مشرع فليس على المؤمنين إلا أن يحكموا مبادىء الشريعة ليقيموا مجتمعهم الفاضل ، فاذا كان لابد من أمير فلكي يحافظ على تنفيذ أحكام الشريعة لا ليسن أحكاماً من عنده .

هكذا كتب على هذه الجماعة أن تقاتل دون هدف .

لقد وجدوا أن الدول التي قامت منذ قبول التحكيم هي دول اغتصبت السلطة من الأمة ، فأمراؤها كفار ، بل والذين يوالونها كفار أيضاً ، والسيف هو الحكم ، والهدف ليس اقامة دولة بل تحطيم الدول القائمة .

ومثل هذا المسلك كفيل بأن يجعل الخوارج جماعة متمردة أبداً تدافع عن وجودها ولا تعد أنصارها بأية غنيمة سوى اعلاء مبدأ « لا حكم إلا لله » !

لكأني بهذه الجماعة التي أدرك جيلها الأول عصر النبوة والخلفاء الراشدين تنهار أسسه وتطمس معالمه وتحرف تقاليده ، بخرج فرسانها في هذا المشهد الانتحاري المأساوي تلؤهم روح التقوى وتستثيرهم فطرة البدوي المجبول على المساواة حين يرون أن امارة المؤمنين أصبحت ميراثاً في أمية وأن طلابها الآخرين يريدونها ميراثاً في هاشم ، فيجتاحون البلاد على ظهور خيولهم يصلون ويصومون ويقاتلون محاصرين أبداً مطاردين فيغلبون مرة ويغلبون مرات ويظلون يتناقصون ، وفي هذا المعنى ، معنى الفقر ومعاناة الحصار ، يكتب شعراء الخوارج بكائياتهم الشجية ، يقول راجز منهم !

حتى متى يتبعنا المهلب
ليس لنا في الأرض منه مهرب
ولا السماء ، أين أين المذهب ؟

انهم يقاتلون بغير أمل ، ومع ذلك فهم لا يكفون عن القتال . وتقوم الدول وتختلف وتتصارع لكنها تتفق كلها على قتال الخوارج حتى يفنوا عن آخرهم ، وهذا هو الأصل في أن موضوع الموت هو الموضوع الأول في شعر الخوارج ،

الموت الذي أصبح قريناً لكل خارجي يراه في صلاته وصيامه وفي وجه عدوه ، بل الموت الذي يحبب له وجه عدوه . أليس بسيفه يبريء الخارجي ذمته ويبلغ رسالته وينتقل الى الاخرة حيث رفاقه واخوانه الذين قضوا شهداء حفظة على الكتاب ثواراً لله ؟

يقول شاعر خارجي مجهول في وصف أصحابه :

يمضون قد كسروا الجفون الى الوغى
مبتسمين وفيهم استبشار
فكأنما أعداؤهم أحبابهم
فرحا اذا خطر القنا الخطار
ولقد مضوا وأنا الحبيب اليهمو
وهمو لدي أحبة أبرار

وهنا يختلف الخوارج عن الصعاليك في رؤيتهم للموت الذي هو موضوع رئيسي في أشعارهم جميعاً .

لقد كان الشعراء الصعاليك وهم وثنيون يرون الموت نهاية للحياة فهم ينتصرون عليه بمواجهته أو باستنفاد متعة الحياة ، أما الخوارج وهم من تقاة المسلمين وغلاتهم ، فهم يرون الموت باباً الى حياة النعيم الخالدة فهو حبيب إلى نفوسهم بقدر مايكمل دائرة التقوى في حياة الخارجي التي لاتكتمل إلا بالاستشهاد وبقدر ماينفذون منه الى نعيم الله حيث يرح الأخوان الذين سبقوا في الشهادة . وقديماً كان الأجداد يعتقدون أن دخول النعيم لايكون إلا عن طريق الموت في معركة أو عن طريق الانتحار ، فالموت الطبيعي استنفاد لفرصة الحياة كلها على الأرض، انه موت للجسد والروح معاً . أما الموت العنيف فهو اطلاق الروح ارادياً لتعيش

في الحياة الاخرة أو في الأرض النهارية الواسعة كما يحدثنا الباحث العراقي الدكتور فخري الدباغ في كتابه « الموت اختيارا » .

هكذا أصبح الموت هو الأمل ، الموت العنيف لا ذاك الموت الذي ينتظره العامة بصبر ، أو يلجأ اليه المتصوفون بانهاك الأجساد في التقشف والعزلة ، فالفارس الخارجي يدخل الجنة مخضباً بدمائه أو مغتسلا بها ، والموت رفيق طريق وهو في بعض أشعارهم فتى وسيم تتجمل له المرأة الخارجية وتدهن له رأسها وتغسله كما فعلت أم حكيم وهي امرأة خارجية ذهب بعض الشراح الى أنها أم حكيم التي شبب بها قطري بن الفجاءة وأنها كانت معه في معسكره وكانت من أجمل الناس وجهاً وأشجعهم وأحسنهم ديناً ، وأخبر من شاهدها في حروب الخوارج أنها كانت ترتجز وتقول :

أحمل رأساً قد سئمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله !

بل لقد أخذت امرأة خارجية أخرى تقارن بين عضو التـــذكير وبين الرمح ، فقالت من أبيات لها :

تركت رمحاً لينا مسه
وجئت رمحاً مسه قاتل
شتان هذا بدم سائل
وذاك منه عسل سائل
مطعون ذا كم منه في لذة
وأم مطعون بذاك ثاكل

وفي شعر الخوارج لا نكاد نحس للأعداء بوجود يتجهون اليه بحقدهم أو يتمنون حقاً أن يقوضوه ليحلوا وجودهم مكانه ، فالأعداء هم رسل هذه الدنيا

إلى حدة لايفعلون إلا أن يرسلوا الخوارج الى دار النعيم المقيم . لكن هذه الفكرة لاتؤدي الى استسلام الخارجي ، بل هي على العكس تجعل قتاله من أشق الأمور، فالخارجي يؤدي طقس الاستشهاد بكامل اخلاصه ويجاهد عن حقه في النعيم بكل بسالة ، وهذا ما كان يؤدي كثيراً الى انتصار الخوارج وهم قلة على جيوش الخلفاء والأمراء التي كانت تذهب لقتالهم ، ومع كل هذا الاخلاص والاستبسال يخاطب الخارجي غريمه بفروسية ، بل بشيء من الود طالباً منه أن يكون كفؤا له حتى ينال على يديه الضربة التي ستبعث به الى دار البقاء ، يقول كعب ابن عميرة :

ويارب هب لي ضربة بمهند
حسام اذا لاقى الضريبة يبتر

الموت اذن هو غاية الشاعر الخارجي ، ولهذا فالشاعر الخارجي فارس أبداً ، وهذه الغاية هي التي أوحت الى الشعراء الخوارج بكل مانظموا من أشعار، فليس في شعر الخوارج مايمكن اعتباره من أبواب الشعر التقليدي ، لامدح ولا رثاء إلا للاخوان الشهداء . وربما كان الشاعر الخارجي أول شاعر عربي يذم المدح في سبيل الرزق ، وذلك في قول عمران بن حطان السدوسي في الفرزدق وقد رآه ينشدُ الناس من حوله :

أيها المادح العباد ليعطى
أن لله مابأيدي العباد
فاسأل الله ماطلبت اليهم
وارج فضل المقسم العواد
لاتقل في الجواد ماليس فيه
وتسمي البخيل باسم الجواد

وشعر الخارجي في النهاية وجه آخر لالتزامه الديني والسياسي ، والموت قرينه ، وهو يعيش دائماً ويده على مقبض سيفه يرى موته ويخاطبه ويتجمـــل له ويعاشره ويتمناه .

ولعلنا بهذه النبذة عن قطري وعن الخوارج أن نكون الان متهيئين لندخل عالم قصيدته التي تقع في ثمانية أبيات نبدأ أولاً بقراءتها :

يارب ظل عقاب قد وقيت بها
مهري من الشمس والأبطال تجتلدُ
ورب يوم حمى أرعيت عقوته
خيلي اقتساراً ، وأطراف القنا قصد
ويوم لهو لأهل الخفض ظل به
لهوي اصطلاء الوغى ، أو ناره ، تقد
مشهراً موقفي والحرب كاشفة
عنها القناع وبحر الموت يطّرد
ورب هاجرة تغلي مراجلها
خرتها بمطايا غارة تخد
تجتاب أودية الأفزاع آمنة
كأنها أسد تقتادها أسد
فان أمت حتف نفسي لاأمت كمداً
على الطعان وقصر العاجز الكمد
ولم أقل لم أساق الموت شاربه
في كأسه ، والمنايا شرعوردا

وأول ماعلينا أن ندركه من البداية أن القصيدة ليست تصويراً للحياة التي عاشها قطري بن الفجاءة بل هي عالم مستقل ، ورغم أنها تتخذ من الحرب موضوعا لها ، ورغم علمنا بأن قطرياً عاش مقاتلا ومات قتيلا في معركة،فالقصيدة

مع ذلك عالم من الجمال اللغوي يصلنا بحياة الشاعر الباطنية أكثر مما يصلنا بظاهر هذه الحياة ، ولهذا فأول مايبدأ به الشاعر كلمة « يارُب » موحياً بأن العالم الذي نوشك أن ندخله تقوم صوره في الخيال أو تتوارد في الأحلام .

وقد قدمنا في أول هذا الحديث تلك الصورة الرائعة التي تبدأ بها القصيدة ، صورة القديس البدوي الذي يحارب أعداءه بينما يظلله هو وفرسه طائر العقاب ، ويهمنا أن نلفت النظر في هذه الصورة الى جملة عناصر هي التي ستظل تتصارع وتتشكل في بقية أبيات القصيدة .

وأول هذه العناصر هو الظل في مقابل الشمس . والظل في خيال البدوي تابع للخضرة والري ، والشمس قرين لليباب والعطش ، ومنها صور الجنة والنار في خيال المسلمين وأحلامهم . الجنة ظل ممدود وخضرة وفاكهة وانهار ، والنار زقوم وغسلين ولهب وعطش . ويقابل الظل والشمس في بيت قطري طائر العقاب قرين السماء ، والمهر قرين الأرض أو رمز الروح الذي يشب في جسده طامحاً للسمو .

فهل نستطيع أن نقول ان البيت يصور هذا الصراع في نفس الفارس البدوي المؤمن بين التقوى والاستسلام أو بين الروح والجسد أو بين الدنيا والآخرة ؟

نعم ! نستطيع ان نذهب هذا المذهب في فهم البيت والقصيدة التي نراها رحلة في جحيم يصنعه الشاعر بخياله حتى يتطهر فيه من ذنوبه في الدنيا متوثباً في النهاية لان يعانق طائره ، أن يتحد بروحه الحق ويرتفع الى السماء مخضباً بدمائه ، فالموت حتف النفس كمد وثواء في التراب .

ثم يقول الشاعر :

ورب يوم حمى أرعيت عقوته
خيلي اقتصارا واطراف القنا قصد

أي ورب يوم ذدنا فيه عن حمانا ، أرسلت خيلي ترعى في ساحته ، متعمداً أقصر طريق الى الموت ، وليس في الساحة الا أطراف الرماح المتكسرة. ونحن انطلاقاً من المطلع نرى أن هـــذه الخيل التي ترعى في ساحة الحرب هي اجساد المؤمنين المقاتلين التي انهكها الشوق الى ملاقاة ربها حيث تجـــد في جنته طعاماً آخر غير طعام هذه الدنيا المليئة بالشرور والآثام وحيث تجد مرعى آخر غير السيوف والرماح المتكسرة.

ويوم لهو لأهل الخفض ظل به
لهوي اصطلاء الوغى او ناره تقد

ورب يوم من أيام المتعة واللهو عند اهل الدعة والخفض من اصحاب هذه الدنيا ، ظل فيه لهوي ان اصطلي نار الحرب او اوقدها بنفسي ، ونار الحرب هنا استمرار لنار الشمس في مطلع القصيدة.

وهنا يكشف الشاعر بعض مره حين يربط بين اللهو وبين القتال، فكأن هذا اللهو - لهوه باشعال نار الحرب او بكتابة الشعر - هو وسيلته الى اقامـــة العالم الحقيقي الذي يسعى لبلوغه ، ذلك ان الحياة التي يعيشها بكل مافيها من لعب اللاعبين وجد الجادين وهم من الاوهام ، وهنا يستوي القتال والشعر في نظر الشاعر ، كلاهما لعبته الى اقامة هذا العالم ، او لعله في الحرب والاستشهاد يحقق في نفسه صورة الوهم الزائل او يتيقن من كذب الحياة وصيرورتها للزوال ، بينما هو في الشعر يحقق صورة الحقيقة الباقية ، ولعل نار الحرب التي اوقدها ليصطليها تعظم وتمتد حتى تصبح جحيماً مسعوراً يدخله متطهراً فيه ليخرج منه وقد ضمن أن يرتد الى الابد بظلال الجنة.

مشهراً موقفي ، والحرب كاشفة
عنها القناع ، وبحر الموت يطرد

ان موقفه في الحرب او في هذه التجربة واضح مشهر ، فهو يدخلها باسمه لايتخفى ، بل يكشف نحره لقرنه اذا استطاع ان يجد اليه سبيلا بينا يطرد بحر الموت اتساعاً . وتعود الخليقة كما كانت في اول الزمان مياهاً ساكنة ترفرف عليها روح الله بعد ان رفع الذنب وقبلت التوبة .

لكن الصراع هو قانون القصيدة ، لأن القصيدة ليست قصة لحادثة تبدأ وتنتهي،بل هي صورة نفس تظل تجيش خوفاً وأمناً وقبولا ورفضا وقلقاً واستقراراً

ولهذا يعود الشاعر فيقول :

وربَّ هاجرة تغلي مراجلها
مخرتها بمطايا غارة تخد

أي ورب ظهيرة قائظة كأنما تغلي تحتها المراجل اخترقتها بالأبل أو بالخيل المغيرة المسرعة ، ولنبق متذكرين أن صورة القيظ في هذا البيت هي استمرار لصورة الشمس والحرب ، فان الابل أو الخيل المسرعة هي استمرار لصورة المهر في المطلع ، والشاعر يعبر عن عبوره لهذه الظهيرة القائظة بفعل « مخرتها » فتحس أنه لايسير على أرض بل يخترق بحراً من النيران الملتهبة ، وهي صورة مستقيمة ومطردة مع صورة بحر الموت السابقة ، فهل استطاع الشاعر أن يكفر بهذه الرحلة عن ذنوبه ويتخلص من سحر دنياه الزائل ويجد الظل الظليل الذي تطمح له روحه منذ بداية القصيدة ؟

الشاعر حائر في الأبيات الثلاثة الباقية من القصيدة . ففي البيت الأول منها يجيب بنعم :

تجتاب أودية الأفزاع آمنة
كأنها أسد تقتادها أسد

لقد جاب أودية المخاوف بفرسانه وخيله وابله آمنين جميعاً ، كأن هذه المطايا من الخيل والابل أسد وكأن الفرسان آساد أيضاً .

لقد استشهد اذن فخلع عن نفسه رداء الجسد ودخل في هيئة أخرى هي هيئة الأسد المحصن الذي يمرح في غابة البشر بلا خوف ولا خطيئة ، والتناسخ في العقائد القديمة وسيلة من وسائل التطهر والخلاص ، والأسد في خيال العامة من المسلمين حارس من حراس الحق مثله مثل حارس الكنوز في التراث الشعبي ، ألا تقول الشيعة الكيسانية أن امامهم محمد بن علي بن أبي طالب من زوجته الثانية خولة الحنفية لم يمت بل هو خفي مستور في جبل رضوى ، وعنده عين من الماء وعين من العسل يتناول منها ، وعنده أسد ونمر يحفظانه من الأعداء الى أن يؤذن له في الخروج ؟!

نعم ! فالأسد هنا ليست مجرد تشبيه الرجال بالشجاعة وإلا فلماذا جعل الشاعر خيله وابله آسداً أيضاً ، بل هي الأرواح القوية المحصنة تحولت في نار الحرب أو في المطهر الى آساد ، وهي صورة بدوية تراد في صورة العقاب في أول القصيدة . سبع الطير وسبع الوحش . أو أن الأسد هو صورة التزاوج بين العقاب والمهر وهي التعبير النهائي عن ختام الصراع بين الروح والجسد واكتمال الدائرة بالاستشهاد .

لكن هذه الرحلة كلها رحلة في الشعر والخيال ، ربما تمت وربما لم تتم ، وعندئذ يموت الشاعر حتف نفسه وينتهي وجوده .

فان أمت حتف نفسي لأمت كمداً
على الطعان وقصر العاجز الكمد
ولم أقل لم أساق الموت شاربه
في كأسه ، والمنايا شرع ورُدُ

وظاهر المعنى أنه لن يموت كمداً ولن يندم على أنه لم يتساق الموت مع الأبطال المتجالدين في كئوس المنية ، فقد دخل المعارك وكشف نحره للأعداء وأوقد نيران الوغى واصطلى بنارها .. هـذا هو ظاهر المعنى . لكن « لا » النافية هنا تبدو وكأنها أداة اتباع وتأكيد لاحساس هذا الشاعر الفارس بالكمد اذا مات حتف نفسه . انه وهو ينفي عن نفسه الموت كمداً كأنما يكشف عن احساسه العميق بالكمد لأن رحلته كلها تنتهي ولم يحقق لنفسه مايريد من أمن وخلود وما يحقق للعالم من الطهارة ومعرفة الحق .

وكأن البيتين الأخيرين هما عودة من الحلم الى معاناة واقع لابد أن يموت فيه الشاعر الفارس كمداً !

الشعر الحر

شعر الثورة القومية الاشتراكية

أحمد يوسف داود

لعله لم يحدث مرة في التاريخ ، أن نمت تأثيرات قوة ما ، وتغلغلت داخل الاجزاء الصغيرة لمكونات الحيـــاة الانسانية كما نمت وتغلغلت تأثيرات الامبريالية العالمية .

ولعل أي شعب في التـاريخ لم يعـان من التفتت والقلق والخوف ، والتمزق والتزوير ، والاغتصاب والسلب ، من داخله ومن خارجه ، كما يعـاني الشعب العربي . وفي انعكاس كل هذا على سلوكية الانسان العربي ، مظاهر محيرة ، شاذة وغريبة ... تـكاد تدفـع المرء إلى الاعتقاد أنه لم يحدث أبداً أن جابه شعب مثل هذا التحدي بمثل هذا التخـاذل والكذب على النفس ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها والانطلاق من ذاك التسـاكن فالقبول بالأمر الواقع !!

إن مجموعة الحياة العربية والحياة الانسانية ، يتبادل فيما بينه تأثيراً يخلق وضعاً حضارياً فريداً في هذه المنطقة ويتكون الفرد داخله دون ان تكون له فرصة الخيار أو الحياد .

وطبيعي أن تكون كل مظاهر النشاط العقلي والجسدي للأمة العربية خاضعة لهذه الشروط متفاعلة معها في كل تطوري موحد ومتفرد

ومن داخل هذا الإطار سأناقش موضوع الشعر الحر، تبريره ووظيفته ، تفسير بعض الظواهر فيه ، ومدى انسجامه مع الأسباب التي أدت الى خلقه

إن مادعاني الى هذه المقدمة السياسية الصرفة أمران مرتبط أحدهما بالآخر كل الارتباط :

أولاً : ان الادب بشكل عام ظاهرة اجتماعية بمعنى انها استجابة لمجموع التحرك الاجتماعي الراهن وتعبير في أعلى للنمو الطبقي داخل المجتمع ، وبمعنى آخر ان جمالية الشعر وفكره في مرحلة من المراحل انما هو جمالية الطبقة السائدة وفكرها ، مرتبط بها غير منفصم عنها، فاذا ما اشتد التصارع الاجتماعي انعكس ذلك في الادب ،فاذا ما تغلبت طبقة ، وأخضعت أخرى ، فقد أدب الطبقة المغلوبة قيمته وحكم عليه بالاعدام .

ولاثبات ذلك نستطيع أن نتقرى تاريخ الشعر العربي منذ الجاهلية وحتى اليوم ... اننا سنجد في البدء الشعر الذاتي الذي يعكس الحالة الاجتماعية القبلية السائدة : النمو الاجتماعي في بدايته ، واطار القبلية هو الاطار العام، ومن داخلها اطار العائلة وداخل ذلك إطار الفرد ، وثمة توكيد على الذات داخل هذه الأطر يحور الحياة على الفرد من جهة ويخلق اصطراعات متدرجة فيما بينها من جهة أخرى ... وهكذا كان يكفي أن يحصل المرء على سيف وحصان وساعد قوى كي يتمكن من الاستمرار وتحقيق الرغائب .

ولقد جاء الشعر الجاهلي ، تبعاً لذلك ، مغرقاً في الذاتية بأكثريته بدءاً من شعر امرىء القيس وحتى أشعار الصعاليك ثوار المجتمع الجاهلي .

وفي العصر الأموي صعدت البرجوازية التجارية العربية ، والقرشية منها بشكل خاص ، سدة الحكم وقمعت حركات الموالي وفقراء المسلمين الذين عرفوا بمختلف التسميات التاريخية الشائعة . ولذلك فقد أصبح الشعر السائد هو الشعر الذي يتملق السادة الجدد ويسبّح بمحامدهم وخفقت أصوات الشعر الخارجية منها ، والحركية الأخرى ، ثم انتهت !!

ولقد ظل الشعر في ثوبه البدوي المهيب الخشن (عمود الشعر) هو الشعر الجميل ، لأن السـادة اعتمدوا في حكمهم على تحكم العنصر العربي بالموالي ، والأغنياء بالفقراء واستمرت القيم الفردية الجاهلية ، بل غُذيت وأصبحت أساس الحكم والشعر . وليست معركة النقائض أكثر من معركة مفتعلة داخل الشكل السائد ، ومظهر الصراع القبلي المتجدد .

ولا يكاد يختلف الامر في العصر العباسـي من حيث الجوهر ، اذا استثنينا صعود الموالي وحلولهم محل العرب في وضع عنصري معاكس ، بما خلق ارهاصات تحرك شعري جديد داخل اطار حياة السادة ، المتعفن . وظل المديح هو الشعر ، والنزعة الذاتية فيما عداه غالبة . ولعل كثرة الاختيارات والحماسات في هذا العصر خير دليل على ما أقول . أمـا الخلاف بين أبي تمام والبحتري فلم يكن خلافاً جوهرياً في حركة الشعر رغم كل ما أولي من عناية بلغت حد الافتعال ، فالبحتري يصور شعره جماليات السادة العرب وما تستحسنه أذواقهم بينما يمثل شعر أبي تمام نموذجاً معقداً للتكلف في حياة السادة المولدين ،

وما رافق ذلك من مظاهر السرف والترف[1] .

ومبرر كل هذا في الشعر العباسي انما هو انعدام التغير الجذري في حياة الشعب العادي عما كانت عليه في العصر الأموي ، إذا استثنينا زيادة الاستلاب التي أخذ يعانيها .

وفي العصر التالي ، عصر المماليك والعثمانيين ، أوشك الشعر على الموت أو هو قد مات لأن السادة أصبحوا لا يفهمون العربية ، بينا لم يحصل أي تغير في واقع الشعب المستلب . ومع بدايات المرحلة الراهنة ، منتصف القرن التاسع عشر ، كان أشباه الاقطاعيين من العرب وأبناء السلالات العريقة قد وطدوا شيئاً من مراكزهم وبدؤوا يحسون القدرة والرغبة بالتفرد باستلاب شعبهم ،وقد استغلوا نقمة الطبقات الفقيرة على الظلم العثماني ، فقادوا تحركها (ثورة ١٩١٦) وحرفوها عن أهدافها بتحالفهم مع الغرب ، ثم بعثروها وبددوها ليبرزوا سادة مستغلين وشركاء للسادة الكبار الجدد ، مستعمري أوربا .

خلال هذه المرحلة كان الشعر مرافقاً للواقع ذاك ، وكان أمل هؤلاء الاقطاعيين اعادة الخلافة بجميع ما يرافقها . وتبع الشعر جماليات أيام الخلافة فولدت حركة الاحياء في الشعر العربي التي قادها الجيل الأول من البارودي الى بدوي الجبل ، على اختلاف مميزات أفراده .

ان الجزء الثاني من المرحلة ، يحمل معطيات أخرى ، ذلك أن بداية القرن العشرين شهدت ولادة برجوازية أخذ نموها يطرد بحكم تداعي الأساوب

---

(١) ان ما أقصده هنا هو انتماء الشاعر الى فكر وثقافة جماعة ما ، الى اساسها العنصري .

الاقطاعي في الانتاج كنتيجة للاحتلال الغربي ، وتحطيم بعض البنى الاقتصادية الاساسية في المجتمع العربي التقليدي . لقد نمت هذه البرجوازية كالطفيليات على على اطراف نظام الاحتـــلال الذي يسخر مجتمع المستعمرات لصالح شركات أوطانه الرأسمالية . ومن المؤكد ان هذه البرجوازية في بداية هذا النمو الطفيلي العاجز لم تكن تدرك طبيعة الدور المهيأ له تاريخياً . لقد أحست في البـــدء بتناقضاتها مع رأس المال وصارعته من خلال ركوب موجة التحرر التي شنتها جماهير الشعب الكادحة معيدة نفس طريقة أبناء السلالات العريقة في التبديد والبعثرة حيث برزت متحالفة معهم كسيدة حاكمة للمجتمع العربي فيما بعد .

ومع صعود هذه الطبقة كانت ثمة مدرسة شعرية جديدة تنمو ، تلك هي المدرسة الرومانسية التي كان من ممثليها الشابي وأبو شادي مروراً بغالبية شيوخ الشعر العربي اليوم . ولعلي لست في حاجة للاشارة الى أن الرومانسية وليدة الثورة البورجوازية في اوروبا وشكل ابداعها الفني المفضل وأن اهم مميزاتها هو تغليف الذاتية بغلاف انساني ضبابي وطوباوي ومزور ، انسجاماً مع الاسلوب الفردي في الانتاج والشعارات الضبابية عن العدالة والمساواة والديمقراطية ...

ان ما أردته من هذا العرض هو اثبات ماسبق ان عرضته أولاً من ان الادب والشعر هي أشكال فكرية عليا ، للطبقة السائدة .

ثانياً : بناء على ماسبق فان الأدب ليس إلهاماً او نبوة عائـدة الى ذات الأديب المبدع بل هو انبثاق عن التفاعل الجدلي الاجتماعي القائم ، من خلال وعي الذات المبدعة وتنظيمها واستجابتها ، ووفقاً لذلك فكل شعر هو شعر ملتزم، لكن بصالح الطبقة التي ينتمي اليها الشاعر أو التي التحق بها ، وللقيم الثقافية الخاصة بتلك الطبقة .

ولكن هذا القول ينبغي ألا يفهم، هكذا، مجرداً، بل ينبغي ربط ذلك من خلال عمومية التأثير الأمبريالي على الوضع العالمي عامة والوضع العربي خاصة،

وقبل أن أصل الشكل المحدد لتوظيف الشعر اليوم لا بد أن نتعرف على صورة الواقع العربي الراهن.

لن أتكلم عن الأهمية الاستراتيجية والبترولية والمنجمية للوطن العربي، ولا عن أهمية السوق الاستهلاكية العربية / ١٠٠ مليون نسمة على أبواب أوروبا/ فذلك أمر مقرر لا حاجة للجدال فيه، ولكنني سأعود الى حيث توقفت عند نمو البرجوازية العربية، الطفيلي المشوه وتحالفها مع أشباه الأقطاعيين وشيوخ العشائر في عملية تصفية الثورة العربية التحررية ومنعها من استكمال مهامها الاجتماعية..

إن ظروف التمركز الاحتكاري الشديد في حياة الامبريالية قد جعلت من المستحيل على السادة الجـ ـ ـدد أن يضعوا الأقطار التي ورثوها مجزأة من أيام الاحتلال الأوروبي، وبالتالي فان همهم لم يعد يتمثل في ضرورة توحيد السوق الداخلية / كما فعلت البورجوازية الألمانية / مثلاً وإنما أصبح يتمثل في التشبث بانفصال أقطارهم لأنه يتيح لبرجوازية (١) كل قطر واقطاعييه أن يعيشوا على استلاب الجزء من الشعب العربي الذي يحيا في ذلك القطر. إن مصادر دخولهم تكمن:

أ - أن يكونوا سماسرة للاحتكاريين يتوسطون في بيع السلع الامبريالية للشعب ويجنون أرباحاً على حسابه.

---

(١) البرجوازية الصغيرة مخرجة بداهة من هـذا المفهوم بحكم تعرضها هي الاخرى للسلطة..

ب – مشاركة الامبرياليين في نهب الثروات العربية / العائدات البترولية مثلاً / بحصص، على ضآلتها، لا يستفيد منها غيرهم .

ج – تملك بعض الصناعات التحويلية الاستهلاكية الخفيفة التي تنعم بها الأمبريالية عليهم فلا تنافسهم في مجالها او يتمكنون من حمايتها بالسياجات الجمركية.

د– حصة من انتاج الأرض الزراعية، محدودة وغير ذات أهمية .

إن استعراض مصادر الدخل هـذه يوضح مدى تبعيتهم للامبرياليين. وارتباطهم الذيلي بهم نظراً للترابط بين مصالح الطرفين . علماً بأن النتائج ليست سوى مزيد من الاستلاب ومزيد من التخلف للجماهير العربية .

ولكن هـذا التحدي الأمبريالي – الاقطاعي – البرجوازي ليس هو الصورة النهائية للمسألة . إن التحدي الأكثر إلحاحاً وفاعلية هو التحدي الصهيوني، هذا الشكل المركب للاستعمار قديمه وحديثه .

إن الترابط بين الصهيونية والأمبريالية هو ترابط ديالكتيكي قائم من خلال التفاعل بين الرأسماليات الأخرى.. وفي ظروف التمركز الهائل للاحتكارات اليوم حصل اندغام كامل بين كل هذه الرأسماليات، وهكذا فالحلف يتخذ الآن صورته على الشكل التالي: الأمبريالية – الصهيونية + الرجعية البرجوازية ويلحق بهذا الحلف جيش من الانتهازيين والوصوليين والعملاء .

فمع من يتناقض هذا الحلف أساساً على مستوى الوطن العربي ؟

إن الجواب فوري وبسيط : إنه يتناقض مع بقية طبقات الشعب وفئاته من فلاحين وعمال وكسبة وجنود ومثقفين ثوريين. فما هو تاريخ تحرك هـذه الطبقات ؟ إن هذه الطبقات في الواقع هي التي خاضت كل الحروب التحريرية ضد المستعمرين العثمانيين والأوروبيين، ولكن جهلها لم يسمح بتوضيح رؤيتها الثورية

وفرز أعدائها وأصدقائها فبقيت حتى الآن عرضة لأحابيل الحلف المضاد ومؤامراته.

ومع انتشار التعليم في صفوف الكادحين منجهة وازدياد القسر الامبريالي وحدته بدأ يتوضح شيئاً فشيئاً طريق هذه الجماهير ولكنه للأسف لم يأخذ بعد شكله العلمي المطلوب. بل إن هذه الجماهير في غالبيتها لا تستطيع حتى الآن أن تدرك أن النضال الوحدوي من أجل تجميع القوى متلاحم دبالكتيكياً بالنضال الاشتراكي بحكم الترابط الجدلي بين قوى الحلف المضاد وما ينتج عنه من تجزئة وتبعية وتخلف. لا مفر من الأخذ بذلك وما لم تأخذ به فستبقى ثورتها عرضة للانتكاسات والفشل وستبقى تضحياتها تذهب هدراً

فما هي وظيفة الشعر على ضوء ذلك؟

إن ما اريد التأكيد عليه هو أن الفرد لم يعد قادراً على التمحور حول ذاته والاكتفاء بها إنه بحاجة قوى أكبر من طاقاته وطاقات تجتمعه بما لا يقاس إنـه، شريك غـيره في حصاد القسر والاستلاب مرغم على الذوبان في الجماعة التي ينتمي إليها مصلحياً، بمعنى آخر أن الطبقة الآن هي الأساس وليس الفرد! وهذه الجماعية ليست ظاهرة عربية فقط، بل إنها ظاهرة عالمية عامة ولدها الانتاج الواسع وشروطه ومعطياته.

وبما أن الأدب ظاهرة اجتماعية طبقية كما أثبت أولا فان وظيفة الشعر الأصيل، وظيفة الثقافة بشكل عام هي دفع الثورة إلى أقصى مداها: شرحها وتعليمها، رصد تحركها وارهاصاتها، التبشير بها والتمهيد لها والدفاع عنها، تطويرها واغناؤها.

إننا في الواقع نعيش كل حياتنا من داخل الصراع القائم: الحب ينمو داخل رعبنا وقلقنا وعنفنا وتعثرنا، وتلك الصورة المثالية الهانئة له هي صورة كاذبة مفتعلة.

جمال الطبيعة نحسه من داخل رعبنا وقلقنا .. عاطفة الأبوة والبنوة .. الصداقة .. كل شيء بلا استثناء تهتز صورته المثالية وتنفرط تحت عنف الصدام والقسر وتولد صورة جديدة له متلائمة ومنسجمة مع واقع الصدام ذاك .. أفيمكن ألا تهتز قيم الشعر هي الأخرى ؟ أترانا قادرين على أن ننكر بعد ، أن الشعر والأدب والثقافة عامة ليست ظواهر اجتماعية طبقية ؟

لقد قلت أنه ثمة حلف نصارعه .. حسناً ؛ إن ثمة أيضاً ، صراع ثقافة ضد ثقافة ، بالتالي مقاييس للجمال الفني ضد مقاييس أخرى ، فما هو شكل شعر الطبقات الثورية الجديدة ومامظاهره ؟ لقد أبدع البرجوازيون المدرسة الرومانسية وأبدعوا القصائد الخطابية الطنانة الجوفاء مثل شعاراتهم عن العدالة ، فماذا يبدع الكادحون ؟ (أعني شعراءهم ومثقفيهم) وهل تلائم مايبدعونه مع معطيات واقعهم ؟

— قلت إن مرحلة الذاتية الفردية قد انتهت وهكذا فوحدة البيت يجب أن تنتهي . إن الجماعة هي أساس التحرك الاجتماعي ، أفيمكن إلا ان تلتئم القصيدة في وحدة واحدة لايتفرد فيها البيت ، مثلما لايفقد قيمته من خلال الانسجام مع بقية أجزاء القصيدة ؟

— إن الجماهير الكادحة قد سمعت المزيد من القصائد الرنانة الواعدة دون أن تجني غير المزيد من الاستلاب . إنها تعيش الآن آلامها دون بكاء وصراخ ، غير واثقة إلا من عملها ولذلك فطبيعي أن تكون القصائد المنتمية إليها ، غنية بالانفعالات الصامتة التي تستشف دون أن تعلن عن نفسها بعيداً عن حلاوة الجرس وطلاوة الأسلوب المعتمد على رنين الكلمات ومنافقات القصائد الرنانة .

— إن الجماهير تثور ضد أغلالها وشعرها يثور ضد رتابة قيد القافية ،

وبسقطه ؛ إن الرياش الفاخر لاتمتلكه هذه الجماهير ولذلك فعذراً إن هي لم تحسن التشبيه والاستعارة والكناية في أشعارها، إن تحركها باتجاه أهدافها تحرك ملحمي، أفلا ينبغي أن تحمل قصائدها نفس الروح الملحمية ؟

أنها تريد أن تقول ماهو مهم فقط دون حشو وتطويل ، وهي لذلك تستخدم التفعيلة بأعداد حسب الحاجة دون أن تأبه كثيراً لتوازن أعدادها بين الشطرين .

- إنها في تحركها الثوري تؤكد باستمرار ،على أشياء كثيرة ذات أهمية خاصة ، ولذلك التأكيد أهميته الخاصة أيضاً . وليس تكرار بعض المقاطع أو بعض العبارات في القصيدة إلا المظهر الفني لذلك .

حسناً ! هل استمر في التعداد ؟ إنني اريد أن أقول : إن الجماهير خلال نموها الثوري قد أبدعت شعرها الخاص الذي عرف باسم الشعر الحر (تسمية أؤكد عليها) وهو منسجم تماماً مع واقع هذه الجماهير من الناحية الفنية مبدئياً .

ولكن ماهي المضامين التي يتحدث عنها هذا الشعر ؟

لقد تحدث شعراء المرحلة الاقطاعية عن أمة اسلامية وتحدثوا عن شرق وغرب دون أن يذكروا الأمة العربية الا من خلال كونها جزءاً من هذين : الأمة الاسلامية والشرق . وهكذا ساهم الشعر ، المرة الأولى ، في طمس معالم الصراع الاسامي .

ثم جاء البرجوازيون فتحدثوا بغموض شديد عن العروبة وعن الأوطان المستقلة ذاك الاستقلال الضبابي الذي تبين فيا بعد انه خضوع اكثر لياقة للسيد الأكبر . كما مر في حديثهم ذكر العدالة والمساواة وكثير من الشعارات التي

لا تذهب أبعد من الحناجر ، وذكر الماضي المجيد والحاضر التليد ... مساهمين ، المرة الثانية ، في طمس الكثير من معالم الصراع الاساسي .

ولكن عام ١٩٤٨ بما حمل من كارثة التقسيم وما أثبت من عجز وتآمر الحاكمين من برجوازية وأقطاعيين وأمراء كان عاماً حاسماً

في هذه الآونة كان التيـــار الجماهيري يتكون حيياً حائراً ، ثم تصاعد متخبطاً متعثراً وولد معه التيار الشعري الجديد حيياً حائراً ، ونما متخبطاً متعثراً.

ومثلما حاول البرجوازيون الكبار وحلفاؤهم ركوب التيـــار الثوري الجماهيري وصرفه وتجميده عند الشكليات، كذلك حاولت قيم الشعر البرجوازي الرومانسي ركوب التيار الشعري الجديد وصرفه وتجميده . وانك لتعثر باستمرار على قصائد تدعي أنها محدثة ، ولا تنتمي الى الشعر الحر الا بترتيب الكلمات إن أصح ما يقال فيها أنها هراء ولغط فارغ

وحقاً لقد استمر تخبـــط الشعر الحر ولكن ذلك كان مساوقاً لتخبط الحركة الثورية العربية .

إن هذه الحركة قد ولدت عاطفية وانفعالية نوعاً ما وطالت فيها فترة الغموض حتى بدأت تكتشف طريقها العلمي والجدلي ... ومعها كان يتخبط الشعر الحر ويدخل فترة غموض حتى أخذ يستقر في الاونة الأخيرة .

وكما تتعرض الثورة العربية للهجوم الشرس وللاتهامات المختلفة بالمروق والالحاد كذلك يتعرض الشعر الحر للمزيد من الاتهامات بالتنكر للتراث وبالمروق منه والإلحاد فيه . انه إذن ، واحدة من الصيغ الجمالية لفن ثورة الكادحين وتعبير عن النمو الاجتماعي المتزايد لهذه الطبقة، واذا ما أسقطنا ذلك الهراء الدخيل الذي

لايتصـــل به إلا بشكل ترتيب الكلمات ، فان غموض نماذجه الاصيلة يمكن إعادته الى ما يلي :

أ – عدم الوضوح النظري لثورة الكادحين ، فقد خرجت تلك النماذج متعثرة في انتقـــاء الارضية الأساسية لها وجعلت بالتالي بناءها الفكري أقل تكاملاً وانسجاماً .

إن ثورة الكادحين تكتشف ، من خلال معاناتها الطويلة والشاقة لمعطيات الحلف الامبريالي الصهيوني الرجعي البرجوازي المتمثلة في التبعية والسلب والاحتلال والتشريد والتجزئة والتخلف ... هذه المعطيات المتكاملة جدلياً فيما بينهـا . . . إنها تكتشف أن صلب نظريتها يتمثل في تلاحم نضالها الوحدي الاشتراكي تلاحماً جدلياً معتمداً أساساً وبشكل مرحلي على طبقة الفلاحين – بحكم الترتيب الطبقي الراهن للمجتمع العربي – وعلى طبقة العمال الرديفة ، دون أن يلغي ذلك امكانية دورها القيادي . وعلى بقية الفئات الثورية الأخرى .

كما اكتشفت هذه الثورة بحكم التطور التقني العربي من جهة ، والامبريالي الصهيوني من جهـــة أخرى والتصنيف الطبقي السابق للمجتمع ، أن استراتيجية العمل إنما هي استراتيجية الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية

ان هذه الاكتشافات مازالت تشق طريقها بعسر لدى الجماهير وكثيراً من الأحيان يزيد من التطويق والانتكاسات .

وبناء على ما أوردت فان مهمة ومضمون الشعر الحر هو كل مايغني هذه الثورة ويدفعها الى أمام ويهيء لها ويدعمها ...

ولهذا فان مقياس الجمال فيه ليس بالتأكيد مقياس الجمـــال في الشعر الرومانسي او الخطابي وإنما هو مدى انسجام هذا الشعر مع وظيفته الاجتماعية

السابقة ، ومع انني لا استطيع التفصيل في طبيعة هذا المقياس لأن ذلك يحتاج الى دراسة النماذج دراسة موضعية إلا أن ثمة حالة لا أجدني قادراً على عدم المرور بها ... هذه الحالة هي تبني بعض الأشعار - والشعراء - لبعض معطيات الحركة الثورية والانطلاق منها للكفر ببقية المعطيات وسبها واليكم المثال :

إن كثيراً من الشعراء - الكبار !! - برجوازيين ومتبرجزين ، قد تبنوا العمل الفدائي وغنوا له - بأساليبهم طبعاً - الا أنهم استخدموا ذلك كغطاء لسب الطبقات الكادحة والسخرية من الصراع الطبقي ... و ... الخ

انهم لم يكتفوا بفصم ظاهرة الفداء عن الثورة الطبقية العربية بل حاولوا امتطاءه لتنفيذ أغراض أخرى ضد الثورة .

إن كشف هذه الأساليب هو من مهمات النقد الجاد المرتبط هو الآخر بمعطيات . وهكذا يمكن أن نصل الى نتيجة هي ان أكثر النماذج اصالة في الشعر الحر هي تلك التي تنطلق من استيعاب شمولي للتحرك الاجتماعي الراهن ، وبالتالي فهي اكثرها وضوحاً - وضوحاً وليس مباشرة !! - مهما كان أسلوب التعبير .

ونقص هذه الشمولية سبب في غموض تلك النماذج . واني لأرجو الا يفهم مما قلت أنني أرفض النماذج السابقة غير المكتملة !!

ب - إن الصراع بين طرائق التفكير البرجوازية ، المتأصلة بحكم السبق التاريخي ، وبين طرائق التفكير الجديدة لم يحسم دفعة واحدة لصالح الثانية بل إنه لم يحسم حتى الان وربما ليس في المستقبل القريب .

إن المفكرين الجدد هم الآخرون ، قد تناسلوا جدلياً من الثقافة البرجوازية السائدة ولهذا فهم يحملون ظلالها قليلاً أو كثيراً وطبيعي أن تنعكس في انتاجهم

هذه الظلال . وهم بين هذه الانعكاسات وبين الطبيعة الفكرية الحرة الجديدة لديهم تتجاذب انتاجهم بين هذه وتلك ، مما يوقعهم في الغموض .

هـ – إن الصراع الاجتماعي بطبيعته سيولد قسر الطبقة الحاكمة ضد الأخرى الثائرة وبالتالي سيولد قسر ثقافة الطبقة الحاكمة ضد ثقافة الأخرى الثائرة وستعمل الأولى على إماتة الثانية وستلجأ هذه إلى الرمز لحماية نفسها والتنفس من خلاله ، ذلك أن استخدام الرمز ، بنفس الوقت الذي يشكل مهرباً ، يعطي امكانيات حقيقية لزيادة فاعلية القطعة الأدبية وتأثيرها ، إلا أن المزالق الفنية لهذا الاستخدام كثيرة مما يؤدي إلى الغموض وخاصة في المراحل الأولى .

د – وبناء على كل ماسبق فإن حركة الشعر الحر لايمكن اسقاطها لأنها غامضة قليلاً أو كثيراً ، كما لايمكن اعتبارها هجينة لهذا السبب ، إنها عملية تطور ، تنتظمها حتى تصل بها إلى غايتها . ولعل تاريخ الأدب سيتوقف يوماً ما ، معطياً مزيداً من العناية لهذه المراحل الأولى بعد أن يسقط عنها غبار السفر التاريخي ، وتنجلي ضفتا النهر جيداً .

ولقد لاحظت أن لدى أصحاب الشعر الحر لهفة للتدليل على وجود أصول تاريخية له ، وبعضهم رجع إلى العصر العباسي وبعضهم استشهد بموسيقى القرآن الكريم وترتيب آياته ، إلا أن ذلك ليس مهماً . إذ أن حركة الشعر الحر ليست بحاجة إلى وجود هــــذه الأسبقيات لتكسب شرعيتها ، إلا إذا كانت الثورة الاشتراكية – على الصورة التي هي عليها الآن – بحاجة إلى مثل هذه الأسبقيات .

إن الحركة لتكسب شرعيتها من كونها شكلاً جمالياً متولداً عن حركة اجتماعية محدودة بزمان ومكان وطبيعة خاصة ، وعليه فقيمها ومقاييسها محدودة بنفس الزمان والمكان والطبيعة الخاصة

إنني أتحدث عن شعر طبقة كادحة وشعر مرحلة برجوازية وشعر مرحلة اقطاعية وقد يظن للوهلة الأولى أنني أرفض كل ماسبق حركة الشعر الحر من شعر ، أو على الأقل ، أناصبه العداء ! وتوضيحاً ، لابد من التأكيد ثانية على الزمان والطبيعة المستقلة لكل الأشكال والمضامين الشعرية باعتبارها مرتبطة بتلك الظروف التاريخية المحددة . بمعنى آخر ، إنه ينبغي فهم قصيدة ما من داخل المرحلة التطورية المجتمع ، التي تمت فيها ولادتها ، والاعجاب بها أو رفضها من خلال انسجامها مع معطيات تلك المرحلة ، أو عدمه .

إنني ، مثلاً ، أعجب جداً بوقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال ! إلا أنني لاأستطيع قبوله من شاعر عباسي عاش في بغداد مهما تفنن في التصوير والزخرفة . وأنا أيضاً تستهويني رومانسية الشابي إلا أنني لا أتمكن من متابعة أية قصيدة رومانسية جديدة ، في جريدة أو مجلة !!

وعلى هذا فمن التجني أن نعتبر قد رفضنا التراث . إلا أنه من الخطأ أن نقبل كل مافيه . وإنه لجمود مميت إن نقبل بصمدانية شكل القصيدة .

إن الصدق الفني هو أساس الجمال . وليس الصدق الفني أكثر من انسجام الفنان مع مرحلة التطور الراهنة في أي مجتمع .

إن كثيراً من النقاط التي أوردتها تحتاج لاستشهاد وتحليلات نصوص . وإنني لأرجو أن أتمكن من ذلك ذات يوم .

وأخيراً إن النظرة إلى الشعر ينبغي أن تكون شمولية تربطه بكل معطيات الواقع الراهن وإلا كانت عمليـــة تجزيء تسقط دون أن تجد إلى استيعابه سبيلاً !!

يوميات العشاق الفقراء

عبد الوهاب البياتي
القاهرة

— ١ —

نغتصب العالم بالشعر وبالثورة والوعيد
والموت والرحيل
نسقط اعياءً على ارصفة التاريخ
نذبل في مناجم الفحم وفي اقبية الجليد
نموت واقفين
نموت في غربتنا ، لكننا نولد من جديد
من رحم الليل ومن لحم جبال الأرض
متوجين بعذاب الرفض
وحاملين صولجان الشمس .
نغتصب الفجر بليل العالم الطويل

نبحر ميتين
لمدن المستقبل البعيد
نرفع فيها راية العصيان
نموت في سجونها احياء
نصنع للتاريخ كبرياء

- ٢ -

جراحنا كفّت عن الصراخ
مدينة ً صارت ونهراً باحثاً في رحلة الموت عن الضفاف
وحجراً اسود في مملكة الخرائب
تغسله الأمطار
واملاً يقبع في ضفاف يأس الشعر الفاني
وغجرياً يزرع الأرض على حصانه الحزين
بحثاً عن النور وعن عائشة ٍ في مدن المستقبل البعيد
يموت في غربته ، لكنه يولد من جديد
طفلاً بلا حصان
يمد - مرعوباً من النهار والليل ومن تعاقب الفصول والأزمان -
يداً الى لحم جبال الأرض
وعريها النائم في خيمة نار الشرق
والغسق المطفأ فوق قمم الجبال والسطوح
وصوتها المبحوح

ينفخ صدر سفن البحارة الموتى واعشاب كهوف النور
وجزر الياقوت

- ٣ -

لعندليب قمر البكاء .
للزمن الذي يفر هارباً وينقش الاسماء
في حجر النار على دفاتر الطفولة الزرقاء .
للأمل المقبور .
لثورة الأنهار في غربتها ووحشة الجسور
نبحر ميتين
من مرفا لمرفأ نهيم
ونحرق السفن
فكل ما كان وما يكون : لم يكن

- ٤ -

ماذا تقول الوردة الحمراء للبلبل في حديقة الشتاء ؟

- ٥ -

عانقني في الحلم ، غطي جسدي المحموم بالورود
وقبّل الورود
احسست ان الأرض غطت وجهها بالنور
ووقع المحذور
فَيَدُهُ امتدت الى حديقتي واحرقت في نارها الورود.
وايقظت من نومها الطيور
وقطرات المطر الأحمر والزلزال والبروق

- ٦ -

مجوس هذا العصر في غربتهم يبكون
لم يظهر النجم ولكن ظهر السادة واللصوص.
وشعراء الحلم المأجور
وأغمدوا سيوفهم في جثث الأطفال
وفقراء المدن الجياع
وحرفوا شهادة الأموات
والكتب المقدسة

- ٧ -

من أين يأتي النور ؟
ونحن في كل العصور حجر الطاحون.
نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور
يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك
لكننا نظل صامدين

نموت واقفين
نبحر ميتين
لمدن المستقبل البعيد
نغتصب العالم بالموت وبالثورة والرحيل
نموت في غربتنا ، لكننا نولد من جديد
نحب من جديد
نرفض من جديد
نثور من جديد
نسقط في كمائن الملوك والطغاة من جديد
نذبح في ساحات موت الآخرين ، نطلق النار على الأخوة والأعداء

نحمل جرحانا على جباهنا وندفن الأموات
بلا تواريخ ولا أسماء
نقيم في قبورهم أحياء
نستأنف المسيرة الكبرى من الموت الى الميلاد
نظل في كل عصور البؤس والضياء
معلقين بخيوط الأمل السوداء
منتظرين النار والطوفان

- ٨ -

يافقراء العالم المنهوب
اتحدوا !
يافقراء العالم المنهوب

عن التعامد والانحناء

في فصول الزمن الميت

محمد أحمد العزب

– القاهرة –

– ١ –

غنائية الشاعر المطرود

أغني في جنائزكم . .
وأبصق وجهي السوفي ، من خلل النوافذ ،
في جامعكم ، على الأركان
وأرقد فوق أشيائي على اعتابكم ليلا ،
واسترخي على الجدران
أغني . . لا كما ترجون . .
أقفز من عشاش الصمت ،
محتقباً كنوز الرفض ،
مهترىء القميص ،

مهاجر الألوان
أنا .. للثلج .. والطاعون ..
لالسواعد الضوء المغني في منازلكم
أنا ..
للريح .. والأحزان
عجوزاً .
حافي القدمين
منذ ولدت .. أخبط في فيافي التيه
وأحرق كل ميراثي من القصص الخرافيه
ومتكناً .. هنا .
في كل ماانعقدت عليه ثمار كرمتنا
ومرتحلا على أرض البوار ،
ألوب في بعدين .. بين الجدب والطوفان
أدور على الحوانيت المضاءة ،
ثدّي الشفتين ،
مفترع الحروف ،
مراهق الكلمات ،
منفياً من الأعتاب للاعتاب
أدور .. أدور .
استجدي ..
وأرمي النار في الاحطاب

انادي الله .. والشيطان .. في اوج انتصار النار
بلا القاب
وأزعم ..
انتا ..
يوم التقينا ..
كان واحدنا بلا اهداب
وكان الآخر استرخى على احلى وسائده ،
وأطلق في الجموع الجوع ،
والخوف الخرافي الرهيب ،
وأطلق الأنياب
وأزعم ..
أننا خفنا ..
وما زال القطيع يخاف ..
مازلنا على الأبواب
نحاولُ أن نَطول الشمس ،
أن نرمي بقفازاتنا في وجه كل الصمت ،
أن ننقضَّ في غضب ،
على الأقنان ،
والأربابْ !!

* * *

- ٢ -

هوية الثائر في الموت

يسافرُ في أقاليم الدموع ،
ينام فوق جنادل الرفضِ
يهدّ حوائط الأسياء ،
يرسم لوحة الآتي على الأرضِ
يقايضُ بابتسامته ،
يوزعها على الباكين ،
يرقد في حناجرهم ،
يموتُ على الثرى المباول مشدود الخطى متيبس النبضِ
يقول لنفسه ...
ماتت مسافاتُ الرجوع .
ويحرق السفنَ الورائيه
ويتركُ رايةً في كل شبر ناهض في الأرض ،
ترك ظله جيشاً وأسوارا خرافيه
ويرحلُ .. في انهيار النار ،
ثبج الجليد الطفلِ ،
في قَلَق الفَراشات المسائيةِ
ويأوى ..
ساعةً

ويغيبُ ..
في الكُتَلِ الضبابيّة !!!

* * *

-٣-

موعظة القدّيس البطين

أبارككمْ ..
وأمسحُ شَعْرَكُم يا أيّها الأيتامْ
أبادلكمْ .. بزيْت الدّار ..
ألفَ مسافةٍ في جنّة الأحلامْ
أعينُوني .. عَلى نجوايْ ..
طقوسُ الموت أبذُلُها لكمْ في بَدْءِ موعظتي
خُذُوا الأحزانَ من جَيْبي ..
وَمِنْ وَجَعِ التقاسيم التي تَهْمي بها الأجراسُ في الآحادْ
عبوراً ..
يا أحبّائي ..
على جسر من الالامْ
وشوْقاً للضّياع على طريق الدّمْع ..
شوْقاً كرّسُوا الأيّامْ

طريقُ الربِّ مفروش بجوع القلبْ !!
واتمّ للفناء على طريق الصَّلبْ !!
إماءٌ أنتمُ للجَلبْ !!
عبيدٌ أنتمُ للسّلبْ !!
شياهٌ أنتمُ للحلْبْ !!
طريقُ الربِّ مفروشٌ ..
« ... بأنْ جُوعُوا ... » !!
وطوبى للجياع على طريق الرب !!
طوبى للعطاش إلى ينابيع من الأمثال !!!

- ٤ -

بكائية حفار القبور

يبيع الموت للفقراء ، والأقيال
يبيع دموعه بالخبز خلف جنائز الأطفال
يعود مع الغروب على دروب الحزن والعادة
يقبل مجمع السادة
يقامر في المساء على قبور الاخوة الأعداء
يقول لنورس آت مع السفن الجليدية

اعرني ريشك الفستقي ..

قارضني رؤى الأشياء !!!

* * *

- ٥ -

اعترافات المخبر العصري

نعم ..

آت من الغابات ..

منفيّ إلى الغابات

أفتش في مخادعكم عن البسمات

أراقب أن يدوخ الضوء في شرفاتكم ليلاً ،

وأستدني صدى الكلمات

اقول لطفلة البواب :

« .. يا احلى واجمل طفلة في الأرض .. » !!

واسالها ..

عن الجدران !!

والغدران !!

والبلاب !!

واسألها ..

عن اللون الذي ينهل خلف الماء في الأكواب !!
واسألها ..
عن الأسماء !!
والألقاب !!
واقسم ..
لو اطيق ..
سألت ..
عما تحمل الأصلاب !!
نعم ..
آت من الغابات ..
منفي إلى الغابات
بريئا .. كنت ..
متهماً ... اصير ..
سرقت قامتي الخرافيه
من الغادين وهم الرفض بالقامات
انا ...
في المسرح الليلي ..
فارس عصرنا المقهور
انا ..
في الصيف ..

خلف معاطفي

مقرور !!!

* * *

ـ ٦ ـ

أمثال

يقولُ النَّبعُ للصفصافِ :

انتَ مسافرٌ أبداً على أضلاعيَ الزرقاءْ !!

* * *

ويحكى الظلُّ للسيّاف :

كان يقول ساعة موته ..

لاشيء يُوقفنا عن الانقضاءْ !!

* * *

أنا .

لا الريحُ ..

فتحتُ النوافذَ للشعاع الضعيفْ

ولكنيَ ..

أنا ..

لا الريحُ ..

قاتلْتُ الشّعَاعَ .
قتلْتُهُ بالسّيفْ !!

* * *

انامُ مُراهِقاً في صدر جاريةٍ بلا نهدينْ
أبادها احتقار الجنس ..
أبْصُقُها ..
وتبْصقني ..
على بُعْدَيْنِ مُلْتحمينِ !!

* * *

اهاجر في فَدَافِدِ عالم الأسماءْ
وأرجعُ ..
ضائع الاسم !!

* * *

أعَرّي الريح والغابهْ
أعَرّي السوْط والجلاّدْ
وأكتُبُ ..
– ربّما بالفأس –
: تَرْحَلُ عن مداءِنا !!
ونخوقها على الشعراء والثوّار !!

ونتركها ..
لحفار القبور ، !!
وَمُخْبِرِ الشرطة !!
وقدّيسِ الوصايا العشر !!
يُعْلِن في خوائها ..
عن الخبز المقدّس !! والسلام النذل !! والسلوى !!
وبَدْء مواسم الأحزان والغيظ !!

* * *

رسائل حبّ
الى امرأة غريبة

خالد محي الدين البرادعي
– الكويت –

– ١ –

سافرتُ في الكتب القديمه
وأكلتُ أطعمة الملوك
ونمتُ في مُدُنِ الدخانِ بلا غطاءْ
وسمعتُ موسيقى الفصولِ حزينة الألحانِ
يبلعُها الخواءْ
ورقصتْ تحت الجازِ.. مسلوبا بأفيونِ الحضارةِ والغباءْ
وتشقّقتْ قدمايَ بالأشواكِ من شعرِ المراثي
والمدائحِ والحروبْ

وغرقتُ في بحرِ الزمانِ بلا رقَمْ
وقضيتُ كالمذهولِ في المنفى ...
يطوّقني الدويُّ .. وأنبذُ المنفى لمنفى ألفَ عامْ
داعبتُ جاريةً لكسرى
تحرق « النَوْروزَ » في أجفانها المترحلاتْ
إلى كهوفِ السحرِ .. تنبشُ في حدائقها المجوسيّةْ
عانقتُ في روما فتاةْ
تحرقُ الفيروزَ في العينين ثم تذيبهُ حبًّا ..
وتمنحهُ لكل مسافرٍ مفتوحةَ الصدرِ المخطّطِ بالعراءْ
كانت جليديّهْ

وأفاتُ مذعوراً
إلى وطني المتحرّدِ بالعطاءات القديمهْ
: آتٍ لألثمَ صامتَ الوشمِ المنمنمِ ألعقَ التاريخَ
تحت الدملجِ الأخرسْ
وأقلّبَ الأحجار في قصر الخليفة عند سورِ الشام .
في بغداد .. بين مخازنِ الخمرِ النواسيّهْ
مستسلماً للأصمعي برص ألف قصيدةٍ
بجرابِ سيده الأميرْ
ورجعتُ محزوناً مسيراً أسأل الدربَ البدايهْ
: ياعابرِ الطرقاتِ ..

هل نرتادُ معراجَ التجاوزِ .. نرتقي دَرَجَ الوصولِ
ونفتحُ الأبوابَ عن بستاننا الأخضَرْ
مصباحُنا مُطفَأ
ووجودُنا مُرجَأ
وَدَوِيْ صحراءِ الفراغ يرنُّ في الأذُنِ الصغيرة .. أطلَساً
مُتناثرَ المَرْفأ

ياعابر الطرقاتِ .. أينَ حبيبتي
فَوْتْ مجنحةَ .. هَرَبَتْ بلا عُنوانْ
وسريرُها مازال يحمل جسْمَها المصقولْ
ووجودها المُطبَقْ

قلبَيْتُ جُشَتَها الجميلةَ .. مَوْتِ الشفتانِ ..
بالعاج المثل غير ان القلب عن اشيائه مغلَقْ
ضَرْعٌ بلا لَبَنِ .. وعيْنٌ من زجاجْ
والروضُ في ديجورِه يَغْرَقْ
لو ترجعين .. لنبدأ التسيار من فَوْحِ الهوى
حتى مرافىءِ صبحنا المنداحِ في الصحراءِ
لو نبدأ

- ٢ -

لكانَ في عَتم الجفونِ
سكناكِ سيدتي
فأسبل دونَها وتشِ جفوني
وأظل رغم قناعتي بجِذاع نفسي
مطمئناً للتوسلِ والجنونِ
وأحسُ - بالاغماضِ - وشوشةَ النهار
تتحسسُ العرِيَ المقدسَ .. تحتَ أنملةِ النهار
وحفيفها العلويُ منتشرٌ بذاتي
وحرارةُ الفخذينِ .. تطفيءُ لوعةَ الصمتِ المدمّى
وأشدُ أجفاني كأني لا اريدُ الحلمَ حلما
وأغطُ بينَ الناهدينِ المتخمينِ بخمرةٍ وعناء ..
سكراناً .. ويبقى الحلمُ حلما
وامصُ زهرةَ ليلكٍ مغسولةٍ
بندى الخصوبةِ والعطاء
وارى بضحكةِ مقلتيكِ .. توثبَ الأملِ الدفيقِ .
على ضِفاف الشمعدان
وأنا ضحيةُ ضوئهِ الوهاجِ .. منتحراً بأسواطِ
الحريق

يمتصني كهفُ الزمان
وتصدقُ الحلمَ الضحيةُ .. رغم ان الضوء مطفأ
ويلحُ منسحباً اليكِ .. كأنّ في عينيكِ مرفأ .
فالى متى .

سيظلُّ هذا الحبُّ سيدتي بعيدا لا يُنالْ ؟
متقنّعاً بالصدّ محفوفاً بأشْتات احتيالْ ؟

انا ضقتُ بالأرضِ الكبيرةِ يا حبيبَهْ
جلادُ غُربتيَ الطويلةِ . . لا يزالُ مُلاحقي
وسياطُهُ . . تتعقّبُ القدمين والعينينِ في الأرضِ
الجديبَهْ

الأرضُ ضاقتْ . . بالخيانات الكبيرةِ بالسقوطْ
ضاقتْ بأنفاسِ الصغارْ
كُبرى مدائنها العجيبَهْ
وسهولُها البكْرُ الخصيبَهْ
واناملُ الصبح استحالَتْ
كالسكاكينِ الطويلةِ . . كالمدى المتوهجاتْ . .
ينهالُ منها الخوفُ . . يفترسُ الأماني الباسماتْ
ومَديدُ هذا الكون حَبْسٌ . .
ضاقَ بالمسجونِ والسجانِ في وقتٍ مَعا

أفهل اتيتِ لتنقذيني ؟
القيتُ اثقال اغترابي
في مدى الحلم الجميلِ
واضأتُهُ بالعنفوانِ
بالرفضِ . . بالسفرِ الطويلِ

العطرُ محبوسٌ بسجنِ الغازِ قربَ النارْ
ومزارعُ العينين امست غمضةً عمياءَ في المنفى
وموسيقى الهوى اعصارْ
والصهباءُ طوفانٌ من الأخلاطِ ..
والأفكارُ خوفٌ .. في سلاسلِ العنيدةِ يقبعُ
الآتونْ

أأفوهُ سيدتي اليك .. واعبرُ الجدرانْ ؟
انا لست كالأطيارِ سيدتي ولست لي يدانْ
تتبخوانِ مع الدخانْ
كي يضحكَ الملكُ السعيدُ
ويفرحَ الخصيانْ
ويقدمونَ له البغيَّ على فراشي
وانامُ كالسجادةِ الذهبيةِ الأهداب تحتها
وغداً يقالُ : بأنني طَـوَفٌ بصُنْعِ المجدِ والتاريخ
وغداً يقالُ : بأنني انسانْ

حاولتُ ايجادَ العزاءِ للوعةِ المأساة ..
في مدنِ القواقعِ والجلودْ
حاولت ان استوطنَ المستنقعَ المألوفَ ..
للجيفِ الكبيرة .. للموالي . للجنودْ
حاولت تفسيرَ الحياةِ بلذةِ المأساةِ
بالشمو المستمم .. بالشخوصِ وبالمرايا
وبحثتُ في قاموسيَ الدامي بليلِ البؤسِ .
عن قدرِ الضحايا
ورأيتُ اني لا ازالُ كما ولدتُ
احبُ .. أهوى ان اكونْ
عُبقاً بحُضن الزهرة العذراء
بالعري المقدس بالهوى ...
فلمَ القيودُ حبيبتي ؟ . ولِمَ السجونْ ؟
فخذي جناحيَ - ان اتيت - الى جناحِك
في معانقة سخينة
تنسي غريبَ الأهل والتاريخِ والزمن المكسّرْ
ان الحياة بكلّها في عصره المجرور نحو القاع ..
انّاتٌ . وآهاتٌ .. وقهقهةٌ بمأساة حزينهْ

السيدة أوي

مسرحية من فصل واحد

للكاتب الياباني

يوكيو ميشيما

Yukio Mishima

ترجمة : توفيق الأسدي

عن : Penguin Plays, Traverse Plays

Edited With an introductoin by Jim Haynes, 1966

من هو ميشيما ؟ هل هو مجنون؟ هل هو بطل قومي ؟ أين الحقيقة وراء تلك الضجة التي اثارها انتحاره ؟ وقبل كل شيء ... من هو يوكيو ميشيما ؟

ميشيما أكبر الأسماء الأدبية في اليابان الحديثة . تنازل عن ترشيحه لجائزة نوبل منذ عامين مفضلاً زميله الأكبر سناً « ياسوناري كواباتا » .

وميشيما روائي غريب الأطوار غزير الانتاج . نشر حوالي ست روايات ورواية ملحمية من أربعة مجلدات ومسرحيــة ، كما كتب ومثل واخرج فيلماً عام ١٩٦٦ ، بالاضافة الى ممارسته اليدوية لفنون اليابان القديمــة على سبيل الهواية . وميشيما معروف خارج حدود بلاده ، بل يعد من الكتاب الآسيويين القلائل الذين ترجمت غالب أعمالهم الى الانجليزية . ويقارن بعض النقاد أعماله بأعمال بروست وأندريه جيد . كما لفت انظار الكثيرين بقدرته على ممارسة النقد الأدبي بنفس التمكن الذي يكتب به اعماله الادبية .. وهما صفتان قلما تتوافران لأديب في نفس الوقت .

يقول آرثر ميللر عن أدب ميشيما : « لقد كان له أسلوب جدير بالاعجاب . كان كاتباً سيريالياً ، وكان شهوانياً أيضاً .. كان يخلق أساطير ضخمة بتركيز شديد .. رواياته رؤى مكثفة .. كان مذاق اعماله أيضاً جديراً بالاعجاب .. كل شيء عنده مصوغ بعناية .. واخيراً ، فقد كتب عن اليأس – ليس بمفهومه الغربي – ولكنه يأس نابع من رؤيتــه لمجتمعه وهو يبتعد عن نظام حياته . وأعتقد أن ميشيما كان على ارتباط عاطفي وثيق .. بالقرون الوسطى . »

« وكانسان كان ميشيما نموذجاً للتناقض بين الفكر والعمل . كان ينادي بالعودة الى تقاليد الساموراي المجيدة ، وأساسها التقشف وانكار الذات .. ولكنه كان يعيش حياة حسية كاملة . عرف عنه نهمه الشديد في الأكل ، واهتمامه البالغ بالمظهر والملابس ، اقباله على كل متعة حسية جسدية .. مما جعل البعض يقارن بينه وبين هيمنجواي من حيث نوع الحياة التي عاشها كل منها . كان ميشيما مثالاً يسعى على قدميه ، مثالاً للتناقض

بين قوتين يابانيتين عريقتين .. القوة الروحية والقوة الأرضية .. الجمالي والمادي»(١).

ليس لدي أفضل من هذا اضيفه عن ميشيا سوى انه،رغم ميوله السياسية المتطرفة التي انتحر من اجلها في تشرين الثاني بطريقة درامية عنيفة، كاتب مبدع وأديب كبير يستحق أن يطلع القارىء العربي على مؤلفاته ..

— المترجم —

شخصيات المسرحية

ياسوكو روكوجو

هيكارو واكاباياشي

اوي

ممرضة

(١) وجيه الشناوي، الساموراي ٧٠، «المجلة» القاهرية يناير ١٩٧١.

(غرفة في مستشفى . انها ساعة متأخرة من الليل . في يمين المسرح نافذة كبيرة مغطاة بستارة . أما في الخلفية فهناك سرير تستلقي عليه « أوي » نائمة . من جهة اليسار هناك باب) .

هيكارو : (يدخل تقوده الممرضة . يرتدي معطفاً واقياً من المطر ويحمل حقيبته . وسيم بشكل مذهـــل . يتكلم بصوت خافت) : إنها نائمة ، أليس كذلك ؟

الممرضة : أجل . انها غارقة في نوم عميق .

هيكارو : لن اوقظها إذا تكلمت بصوت عادي ، أليس كذلك ؟

الممرضة : يمكنك أن ترفع صوتك قليلاً إذا شئت ، فمفعول الدواء قد سرى فيها .

هيكارو : (ينظر الى وجه أوي بلهفة) : الكم تبدو هادئة في نومها !

الممرضة : إن وجهها يبدو هادئاً تماماً الآن .

هيكارو : الآن ؟

الممرضة : نعم ، ولكن في أواخر الليل ..

هيكارو : تتالم ؟

الممرضة : ألماً فظيعاً .

هيكارو : (يقرأ البطاقة المعلقة في نهاية السرير) : « أوي وا كاباياشي . أدخلت في الساعة التاسعة مساء اليوم الثاني عشر من .... » إني لاتساءل في نفسي فيما إذا كان هناك مكان استطيع أن اقضي الليلة فيه عندكم هنا .

الموضة : أجل . (تشير الى الركن الأيسر) في الغرفة المجاورة .

هيكارو : أهناك سرير وكل شيء ؟

الموضة : أجل . كل شيء متوفر . أتحب ان تستريح الآن ؟

هيكارو : لا . سأسهر قليلاً . (يجلس على الكرسي ويشعل سيجارة) كنت في رحلة عمل عندما تلقيت نبأ مرضها . قالوا انه ليس امراً خطيراً، ولكن عندما يؤخذ شخص للمستشفى عادة فان الامر لابد أن يكون خطيراً ، أليس كذلك ؟

الموضة : لقد سبق لزوجتك أن تعرضت مراراً لنوبات كهـذه ؟ أليس كذلك ؟

هيكارو : إنها ليست المرة الاولى . كنت في رحلة عمل بالغة الاهمية فعلاً . لقد عمدت هذا الصباح للتخلص من أعمالي وعدت بأقصى سرعة ممكنة . لقد زاد بعدي عنها من قلقي ومخاوفي .

الموضة : إني واثقة من ذلك .

(يرن الهاتف الموضوع على الطاولة رنيناً خافتاً)

هيكارو : (يرفع السماعة الى اذنه) : لا أسمع شيئاً !

الموضة : إنه غالباً ما يرن في مثل هذا الوقت من كل ليلة .

هيكارو : إن به عطلاً على ما أظن . ولكن ما الحاجـــة الى وجود هاتف في غرفة مستشفى ؟

الموضة : في كل غرفة من غرف هذا المستشفى يوجد هاتف .

هيكارو : ومن ترى يرغب في محادثة شخص مريض ؟

الموضة : إنه لاستعمال النزلاء فليس لدينا العدد الكافي من الممرضات ،

ونحن نسأل النزلاء أن يطلبوا واحدة على خط الهاتف الداخلي في حالات الضرورة . أو لو افترضنا أن المريض قد يحتاج الى كتاب فانه يستطيع أن يخابر بائع الكتب مباشرة وذلك بالاتصال الخارجي . لدينا ثلاثة عمال يعملون على فترات طوال الأربع والعشرين ساعة للاهتمام بالاتصال الخارجي . وبالطبع ، عندما يرغب المرضى بالهدوء التام فاننا نرفض تلقي جميع المحادثات .

هيكارو : أليست زوجتي هادئة تماماً ؟

الممرضة : إنها تتقلب طويلاً قبل ان تغفو ، ترفع ذراعيها ، تتأوه ، تحرك جسمها من جنب الى جنب . في الواقع لايمكنك أن تقول انها هادئة تماماً

هيكارو : [يغضب] : تقصدين انه في هذا المستشفى ...

الممرضة : في هذا المستشفى لا نتحمل مسؤولية ما يحلم به مرضانا .

(صمت . الممرضة تبدي دلائل تنم عن عدم ارتياح)

هيكارو : ما الذي يثير أعصابك ؟

الممرضة : ليس جاذبيتك بالضرورة .

هيكارو : (يضحك رغماً عنه) : هذا المستشفى يزداد جنوناً دقيقة بعد دقيقة .

الممرضة : أنت تعلم أنك رجل شديد الوسامة . ولكن نظام عمل الممرضات في هذا المستشفى قاس جداً . لقد مررنا جميعاً بتحليل نفساني وعولجت جميع عقدنا الجنسية .

(تنشر ذراعيها) جميعها . لقد رتبت الأمور بحيث نستطيع دائماً ارضاء رغباتنا . إن مدير المستشفى والاطباء الشباب على مستوى عال من القدرة في هـــذا المجال . وكلما دعت الضرورة يعطون العلاج المطلوب ألا وهو العلاج المعروف بـ « الجنس » . ليست لدينا أية مشا كل فيما بيننا .

هيكارو : (مأخوذاً) : لست جادة فيما تقولين ؟

الممرضة : وكما ترى ، فمن الواضح تماماً وبالنسبة لنا جميعاً – وبدون حاجة لأي تحليل خاص – أن أحلام زوجتك المزعجة ليست إلا نتيجة لعقد جنسية . ليس هناك أي داع للقلق . ستوضع تحت العلاج حتى تتحرر من عقدها هذه . وها نحن نعالجها بالنوم كخطوة أولى .

هيكارو : أتعنين أن زوجتي بعلاج النوم هذا ...

الممرضة : أجل (ماتزال متوترة) وهذا هو السبب الذي يجعلني لأأحمل للمرضى ذرةمما يسمونه « التفهم » ، أو ، إذا كنت تعذرني ، لأمر المرضى وزوارهم . ألا توافقني ؟ كل واحد منهم شبح من أشباح الغريزة الجنسية . حتى ذلك الضيف الذي يأتي إلى هنا كل ليلة ...

هيكارو : كل ليلة ؟ هنا ؟ ضيف ؟

الممرضة : آه – ولكن طالما قلتها – أجل ... إن الأمر يتكرر كل ليلة ، منذ أن دخلت زوجتك المستشفى . ودائماً تأتي الزيارة في وقت متأخر ، في مثل هذا الوقت تقريباً ، لأن الضيف

لايفرغ من عمله قبل ذلك . لقد شُدّد علي ألا أذكر ذلك ، ولكني تفوهت به قبل أن أدري ...

هيكارو : أهو رجل – هذا الضيف ؟

الممرضة : لا ليطمئن بالك – إنهـــا امرأة في منتصف العمر ، بارعة الجمال ... سوف تصل في أية لحظة الآن . عندما تصل فإنني دائماً أستغل فرصة زيارتها وأخرج لأستريح قليلاً . لاأدري ماهو السبب ، ولكني أشعر بالقلق في حضورها .

هيكارو : أي نوع من النساء هي ؟

الممرضة : إنها سيدة تلبس على أحدث طراز وتعطي انطباعاً أنها من بيئة بورجوازية كبيرة . أتدري ؟ من المدهش أنك تجد في العائلات البرجوازية أسوأ كبت جنسي ... على أية حال ، لن يطول غيابها . (تسير نحو النافذة اليمنى وترفع الستارة) انظر . من الصعب أن تجد بيتاً مضاءاً . كل ماتستطيع رؤيته خطان من أنوار مصابيح الشارع . إنها ساعة الحب الآن . إنها ساعة الحب والصراع والكراهية . عندما تنتهي معركة النهار تبدأ معركة الليل . كفاح أكثر دموية وأكثر وحشية . أبواق الليل التي تعزف صارخة ببزوغ فجر العداوات تسمع الآن . المرأة تنزف دماؤها ، تموت ، وتبعث مرة تلو أخرى . ولكنها يجب دائماً أن تموت مرة قبل أن تستطيع أن تعيش . هؤلاء الرجال والنساء الذين يحاربون يلبسون أربطة الحداد السوداء فوق أسلحتهم .

أعلامهم بيضاء ولكنها موطوءة بالأقدام ، وأحيـاناً ملطخة بالدم . قارع الطبل يقرع طبله ، طبل القلب ، طبل الشرف والعار ... ما أرق أنفاسهم أولئك الذين في النزع الأخير . انظر إليهم يموتون ، يبرزون جراحهم بلا خجل ، الجراح الفاغرة أفواهها ، الجراح القاتلة . بعض الرجال يموتون ووجوههم في الطين . عار على الأوسمة التي يرتدون . انظر، أليس غريباً ألا ترى أية أنوار ؟ مايمتد أمامك صفاً بعد صف على أقصى مدى تطاله العين ليس بيوتاً بل قبوراً وإنها لقبور قذرة عفنة . إن القمر لن يلمع أبداً فوق هذه السطوح الجرانيتية ... إننا ملائكة إذ نقارن بهم . نحن نقف في عزلة عن عالم الحب وعن ساعة الحب ، كل مانفعله ، وأحياناً فقط ، هو أن نقوم بإجراء عملية كيميائية فوق أسرتنا . وبغض النظر عن عدد المستشفيات المشابهة الموجودة فهي ليست كافية . هكذا يقول المدير دائماً ...

آه ، ها قد أتت ! ها قد أتت ! تركب دائماً هـذه السيارة ، سيارة كبيرة فضية اللون ستطير هنا وكأن لها أجنحة، وستتوقف برشاقة أمام المستشفى . انظر (جيكارد يذهب الى النافذة) إنها تمر فوق العبارة الآن . إنها تأتي دائماً من هـذا الدرب . هناك كما ترى تأخذ الطريق الطويل ... آه ، ها هي هنا الآن ، أمام المستشفى ، قبل أن يبدو ذلك ممكناً . باب السيارة يفتح . سأغادرك الآن . ليلة سعيدة، (تنطلق مسرعة وتخرج من الباب الأيسر للغرفة . صمت.)

(يرن الهاتف رنيناً خافتاً مخنوقاً . صمت . يظهر من الباب شبح ياسوكو روكوجو الحي . انها ترتدي ملابس يابانية من قماش غالي الثمن وتلبس قفازات سوداء).

هيكارو : السيدة روكوجو !

السيدة روكوجو: هيكارو ! لقد مضى زمن طويل ، أليس كذلك ؟

هيكارو : إذن فهي أنت ، زائرة منتصف الليل .

السيدة روكوجو: من أخبرك هذا ؟ (هيكارو لايجيب) لابد أنها تلك الممرضة . لكم هي ثرثارة ! أنت تعلم ، لم أكن آتي الى هنا لعيادة مريض ، بل لأسلم زهوراً كل ليلة باسمك ، منذ أن سمعت أنك غائب .

هيكارو : زهوراً ؟

السيدة روكوجو: (تفتح يديها) : لا . لاشيء بين يدي . إن زهوري خفية . إنها زهور الألم ! (تتظاهر بأنها ترتب زهوراً الى أعلى سرير أوي) هذه البراعم التي أرتبها إلى جانب وسادتها ستتفتح لتصبح زهوراً بلون الرماد . كثيرة هي الأشواك الرهيبة المخبأة تحت الأوراق ، والأزهار نفسها يضوع منها عبير مقرف سيملأ الغرفة . انظر . التعبير الهادىء يغادر وجهها ، وجنباتها ترتعد الآن وتمتلىء بالرعب . (تمد يديها المختفيتين تحت القفازات فوق وجه أوي) أوي تحلم الآن أن وجهها أصبح قبيحاً بعاهة النظر . الوجه الذي طالما ظنته جميلاً كلما نظرت في المرآة ، قد تحول إلى كتلة من التجاعيد — هذا ماتحلم به . إذا لمست حلقها برقة الآن (تلمس حلق المرأة المريضة) ستحلم أنها

تختنق . وجهها يتضرج بالدم ، أنفاسها تختنق ، بينما تتشنج ذراعاها وقدماها في ألم رهيب .

هيكارو : (يبعد يد السيدة روكوجو في ذعر) : ماذا تفعلين بأوي ؟

السيدة روكوجو : (تبتعد . تتكلم برقة من مسافة) : أحاول أن أجعلها تتعذب .

هيكارو : عفواً ، ولكن أوي زوجتي ولن اسمح لك بازعاجها أكثر من ذلك . أرجو أن تتلطفي بالذهاب .

السيدة روكوجو : (برقة اكثر) : لن أذهب .

هيكارو : ماذا ..

السيدة روكوجو : (تقترب وتأخذ يد هيكارو في لطف) : أتيت الليلة لأني وددت أن أراك .

هيكارو : (يسحب يده) : يدك باردة كالثلج .

السيدة روكوجو : ليس هذا غريباً فليس يجري فيها دم .

هيكارو : قفازاك هذان ..

السيدة روكوجو : إن كنت لا تحب القفازين سأنزعها . ليس هناك شيء أسهل .

(تنزع قفازيها وهي تمشي عبر الغرفة وتضعها الى جوار الهاتف)

على أية حال لدي أعمال ، أعمال هامة يتوجب إنهاؤها . هذا ما يدفعني للتجول بهذه الطريقة في منتصف الليل — ولا تظنن أنه شيء مزعج — منتصف الليل .. (تنظر الى ساعة معصمها) لقد جاوزت الساعة الواحدة . الليل يختلف عن النهار ففيه الحرية .. جميع الأشياء سواء . الناس والأشياء في سبات عميق . هذا الجدار ، الخزانة ، ألواح النافذة ، الباب — كلها

أشياء نائمة ، وفي أثناء نومها تمتلىء بالشقوق والثغرات ــ ليس صعباً أن يمر الانسان خلالها . عندما تخترق جداراً لا يدرك حتى هذا الجدار أنك قد اخترقته . ما هو الليل في اعتقادك ؟ الليل هو الزمن الذي تكون فيه الأشياء في انسجام وتوافق. في النهار يتصارع الضوء والظل . ولكن عندما يحل الليـــل تتشابك يد العتمة داخل المنزل بيد العتمة في خارجه . إنهما شيء واحد . هواء الليــــل شريك في المؤامرة . الحب والكراهية ، الألم والمتعة : كل شيء وأي شيء يمـــد يده للمصافحة في أجواء الليل . إني على ثقة بأن القاتل في الظلام يشعر بالمحبة تجاه المرأة التي يقتلها . (تضحك) ماذا هناك؟ لماذا تحملق بي بهذه الطريقة ؟ لابد وأنها الصدمة لأنك تراني وقد أصبحت عجوزاً لهذا الحد .

هيكارو : اعتقد أنك أقسمت الا تريني أبداً .

السيدة رو كوجو: لقد سعدت جـــداً لسماعك إياي أقسم على ذلك ، ومن ثم تزوجت أوي . (تستدير بقسوة نحو أوي النائمة) هذه المرأة الضعيفة العليلة ! (بطريقة لا معنى لها) ومنذ ذلك الحين أصبحت لياليّ أرقاً في أرق . حتى عندما أتظاهر بإغلاق عيني لا أنام. لم أنم لحظة واحدة منذ ذلك الحين .

هيكارو : هل جئت الى هنا كي تثيري شفقتي ؟

السيدة رو كوجو: أنا نفسي لا أعلم لماذا أتيت . عندما اشعر بالرغبة في قتلك فاني عند ذلك اكون على اعتقاد بأني أرغب أن تشفق عليّ

روحك الميتة . وبين المشاعر المختلفة التي تتوافد معاً هنالك نفسي . أليس غريباً أن أوجد في الوقت نفسه مع كل هذه الموجودات المختلفة ؟

هيكارو : لا أفهم ما تقولين .

السيدة روكوجو : (وهي ترفع رأسها اليه) : قبلني ..

هيكارو : يكفي من فضلك .

السيدة روكوجو : أهدابك الجميلة ، عيناك الصلفيتان بشكل مخيف ، أنفك البارد ، شفة ...

هيكارو : يكفي من فضلك .

السيدة روكوجو : ... شفتاك (تقبله بسرعة)

هيكارو : (وهو يقفز مبتعداً) : أقول يكفي من فضلك .

السيدة روكوجو : عندما قبلتك أول مرة نفرت مني كالغزال كما فعلت الآن .

هيكارو : أجل فعلت ذلك . لم أكن أحبك تماماً . كل ما كنت أشعر به هو فضول طفولي ، ولقد استغللته أنت . وأعتقد أنك قد تعلمت الآن ذلك العقاب الذي تنـــاله المرأة لاستغلالها فضول رجل .

السيدة روكوجو : أنت لم تحبني على الاطلاق . كنت تدرسني . كان هذا – على الأقل – قصدك . أليس كذلك ؟ كم كنت رائعاً ! أتمنى لو أنك تكون كذلك دائماً !

هيكارو : لم أعد طفلاً . أنا الآن رب امرة . أليس عندك أي شعور بالخجل ؟ إنها زوجتي تلك التي تنام هناك قريباً منك .

السيدة روكوجو: الهدف الوحيد من قدومي الى هنا هو القيام بعملي . ليس هنالك ما أخجل منه .

هيكارو : وما هو عملك ؟

السيدة روكوجو: أن تعشقني .

هيكارو : هل أنت في كامل وعيك أيتها السيدة روكوجو ؟.

السيدة روكوجو: اسمي « ياسوكو » .

هيكارو : لست ملزماً بندائك باسمك الأول .

السيدة روكوجو: (وهي تركع فجأة وتلقي بذراعيها حول ركبتي هيكارو وتمسح وجنتيها بها) : أرجوك لاتكن قاسياً معي الى هذا الحد .

هيكارو : هذه أول مرة أراك بها تتخلين عن كبريائك بهذه السهولة . (مخاطباً نفسه) إنه لشيء مضحك . لايبدو أن هناك كائناً بشرياً يمسك بي ولكني لا أستطيع تحريك قدمي .

السيدة روكوجو: لم يكن لدي أي كبرياء ، منذ البداية .

هيكارو : كان عليك أن تعترفي بذلك في وقت أبكر . وربما كانت الامور قد طالت اكثر قليلاً .

السيدة روكوجو: كانت غلطتك الشخصية أنك لم تلاحظ ذلك . ألم تستطع أن تميز أن عيني قد تخلتا عن كبريائهما منذ ذلك الحين ؟ إن أفضل دليل على ان امرأة ما قد تخلت عن كبريائها هو تكلمها بوقاحة . إن المرأة لتتمنى ان تصبح ملكة كيما تكون قادرة على ان تتخلى عن اعظم كبرياء يمكن عنـــدما تود ذلك ... آه ... ركبتاك ، ركبتاك وسادة باردة قاسية .

هيكارو : ياسوكو !

السيدة روكوجو: لكم كان يلذ لي أن أنام فوق هذه الوسادة ! وسادة باردة قاسية لاتدفأ أبداً ... إن وسادتي تصبح حارة لاذعة الحرارة حالما ألمسها برأسي ، وأقضي الليل وأنا أهرب برأسي من جحيم الوسادة إلى البرد . إن ذلك الرجل الذي يمشي حافي القدمين فوق رمال الصحراء الملتهبة ليعجز أن يطأ وسادتي بقدمه ولو لحظة واحدة .

هيكارو : (بلطف الى حد ما) : أرجوك . إني لأصبح رجلاً ضعيفاً جداً عندما تثار شفقتي .

السيدة روكوجو: الآن قد فهمت ! لقد تزوجت أوي بباعث الشفقة ! أليس كذلك ؟

هيكارو : (وهو يدفعها بعيداً) : لاتقفزي إلى نتيجة كهذه قفزاً . (يجلس فوق الكرسي . السيدة روكوجو لاتزال تتعلق بساقيه وتتمسح بركبتيه وكأنها هرة) .

السيدة روكوجو: أرجوك لاتهجرني .

هيكارو : (يدخن) : لقد هجرتك منذ وقت طويل .

السيدة روكوجو: أنت لاتزال مغرماً بي .

هيكارو : هل أتيت إلى هنا كي تقولي لي ذلك ؟ (وهو يثيرها) ظننتك أتيت لتعذبي أوي .

السيدة روكوجو: كنت أقصد قتل عصفورين بحجر واحد . أعطني لفافة من فضلك (هيكارو يمد يده بلفافة ولكنها تختطف اللفافة النصف محترقة من

فه وتدخنها. هيكارو - وهو في حيرة من أمره - يضع اللفافة التي عرضها عليها في فه ويشعلها) .

هيكارو : في تلك الأيام لم أكن واثقاً من نفسي . كان يعوزني الاستقرار وكنت أريد أن أقيد ، أن أوضع في قفص وكنت أنت ذلك القفص . ومن ثم فعندما أردت حريتي من جديد كنت لاتزالين قفصاً ، قيداً .

السيدة روكوجو: كنت أحب النظر في عينيك ، في عينيك اللتين كانتا تبحثان عن الحرية داخل القفص الذي هو أنا ، داخل القيد الذي هو أنا . كان ذلك عندما بدأت أحبك حباً حقيقياً . كان ذلك في الخريف ، بداية الخريف . كنت قد جئت تزورني في بيتي الذي على شاطىء البحيرة . ذهبت لأقابلك في زورق . مضيت حتى ميناء البخوت قرب المحطة . كان يوماً رائع الصحو . كان الصاري يئن بلطف وكان الزورق ..

هيكارو : الشراع فوق الزورق ...

السيدة روكوجو: (بقسوة مفاجئة) : ألا تجد مشاركتي نفس الذكريات أمراً مزعجاً ؟

هيكارو : إنها ليست نفس الذكريات ، ولكن حدث أن كنا معاً . هذا كل مافي الأمر .

السيدة روكوجو: ولكن الزورق كان نفس الزورق . كان الشراع يخفق بجنون فوقنا . آه ... لوكان هذا الشراع هنا الآن ! لوكان له أن يخفق فوقنا من جديد !

هيكارو : (محدقاً في النافذة) : أليس هو ذلك القادم من هناك ؟

السيدةروكوجو: لقد جاء

(موسيقى غريبة . من اليمين ينساب زورق شراعي كبير فوق خشبة المسرح ، يتقدم ببطء وثقة البجعة ويتوقف بينها وبين السرير حيث يقف هناك وكأنه ستارة للسرير . هيكارو والسيدة روكوجو يتصرفان وكأنهما فوق الزورق) .

السيدةروكوجو: نحن فوق البحيرة !

هيكارو : ياله من نسيم رائع !

السيدةروكوجو: هذه أول مرة تأتي بها إلى بيتي الريفي ، أليس كذلك ؟ إنه على طرف البحيرة أسفل الجبل . سرعان مـــا ترى سقفه خلف تلك المجموعة من الأشجار . لونه أخضر فاتح . عندما يحل الظلام تجوس الثعالب حول البيت وتستطيع أن تسمعها تعوي في الجبال . هل سبق أن سمعت عواء الثعالب ؟

هيكارو : لا ... مطلقاً .

السيدةروكوجو: الليلة تسمعه، وتسمع الصرخات التي تطلقها الدجاجة قبل أن تموت والثعلب ينهش رقبتها .

هيكارو : أفضل ألا أسمع مثل هذه الأشياء .

السيدةروكوجو: أنا واثقة أنك ستحب حديقتي . أنا واثقة من ذلك . في الربيع ينمو البقدونس على أطراف الجنينة . وتمتلىء الحديقة بأزكى العطور . وعندما يهطل المطر الربيعي، تختفي الحديقة تماماً وتستطيع أن ترى براعم أكواب الماء تغرق والماء

يزحف عليها من خلال العشب . هل سبق أن رأيت أكواب ماء غارقة ؟ إننا في فصل الخريف، وهناك أسراب من الحشرات الصغيرة تطير فوق الأعشاب في الحديقة لتغطي وجه البحيرة وكأنها زحافات فوق الثلج .

هيكارو : ذاك هو منزلك هناك ، أليس كذلك ؟

السيدة روكوجو: نعم ذلك ذو السقف الأخضر الفاتح ، وتستطيع أن تميزه من مسافة أبعد من هذه عند غروب الشمس لأن السقف والنوافذ تلمع عندئذ ويتحول الضوء الى ما يشبه منارة ترشد من بعيد الى موقع المنزل . (فترة صمت) ما الأمر ؟ أنت لاتتكلم .

هيكارو : (بلطف) : لاداعي لقول أي شيء .

السيدة روكوجو: سماعك تتكلم بهذه الطريقة بلسم لي . بلسم يداوي كل جروحي في لحظة ، بلسم رائع . ولكني أعلم صنفك ، أنت من صنف يمنح البلسم أولاً ثم يجرح ، هذه طريقتك التي لاتغيرها . البلسم أولاً ، ثم الجرح دون بلسم .. أنا أفهم كل هذا جيداً . أنا امرأة عجوز الآن ، وإذا ماجرحت ، جرحي لايلتئم بسرعة كجرح الصبايا . أنا أرتعد فرقاً ، كلما قلت لي شيئاً حنوناً . وأنا أتساءل عن مدى عمق هذا الجرح الذي ينتظرني ، بعد هذا البلسم الفعال جداً . لقد أصبحت في المدة الأخيرة أشعر بسعادة أكبر ، كلما كلمتني بطريقة أقل حناناً .

هيكارو : تبدين على ثقة من أنك ستتألمين .

السيدةروكوجو: سيأتي الألم عاجلاً أو آجلاً ، كما يأتي الليل بعد النهار .

هيكارو : لاأعتقد بقدرتي على إيلام الآخرين .

السيدةروكوجو: ذلـــك أنك مازلت شاباً . وسوف تستيقظ ذات صباح خالي البال . وربما شعرت ـ وأنت تتنزه مع كلبك ـ بعشرات من النساء في مكان مـــا يتألمن ـ دون ان تراهن ـ وستفهم عند ذلك أن حياتك مبعث ألم لكثير من النساء . حتى ولو كنت عاجزاً عن رؤيتهن ، سوف يرينك ولن يكون من المفيد عنـــد ذلك اشاحتك بنظرك بعيداً فهن يرينك بوضوح و كأنك قلعة تنتصب فوق جبل يشرف على مدينة .

هيكارو : لماذا لانغير موضوع الحديث ؟

السيدةروكوجو: أجل ، لنغيره . طالما استطعت الحديث عن مثل هذه الأشياء ، أعتبر نفسي محظوظة .

هيكارو : أستطيع رؤية بيتك بكل وضوح ، الآن . ها هي قضبان نوافذ الطابق الثاني ، وها هي حافات الشرفة الخشبية . ما من أحد في البيت ، أليس كذلك ؟

السيدةروكوجو: لاأحد في البيت . هذا هو المكان الذي أحب العيش معك فيه ، حتى أموت .

هيكارو : حتى تموتي ؟ لايجب التحدث عن أشياء غير ثابتة ، كهذه . من يعلم ؟ ربما نموت غداً . افترضي على سبيل المثال انقلاب الزورق ...

السيدةروكوجو: الزورق انقلب ؟ أتساءل ، لماذا لم أشتر لك زورقاً ينقلب في الحال ؟ من الواضح أني لم أتذكر ذلك .

هيكارو : (وهو يهز الصاري) : انظري . يكاد الزورق ينقلب !

(تلقي السيدة روكوجو بذراعيها حول هيكارو . يتعانقان)

صوت اوي : (ضعيفاًمن بعيد) : النجدة ! النجدة !

(عندما يسمع صوت أوي يبدو ظلهاعلى الشراع،وهي تتلوىفوق الفراش ممدودة الذراعين)

هيكارو : ألم يكن ذلك صوتاً صادراً من مكان ما ؟

السيدةروكوجو: لا . لابد أن ذلك كان ثعلباً . فيالنهار ،وعنـــدما تكون البحيرة هادئة ،يمكن أن تسمع عواءالثعالب ينساب فوق الماء

هيكارو : عدت لا أسمعها الآن !

السيدةروكوجو: أتساءل: لماذا يجب أن يكون هناك يسارويمين لكل شيء؟ أناالآن أقف إلى يمينك ،وهذا يعنيأن قلبك بعيد جداً . ولكن إذا وقفت إلى يسارك ، فسأعجز عن رؤية الجانب الأيمن من وجهك .

هيكارو : لكم أتمنى لو أتحول إلى غاز ، وأتبخر !

السيدةروكوجو: نعم . وعندما أكون الى يمينك ، أغار من كل شيء يقع الى يسارك . أشعر أن شخصاً ما يقبع هناك حتماً .

هيكارو : (وهو يقوم بحركات توحي بشخص يميل فوق حـــافة زورق ويغمس يده في الماء) :

ليس من شيء سوى البحيرة إلى يساري . يالبرودة الماء ! انظري إلى هذا ! (يرى يده مبلولة) إنهـــا متجمدة تقريباً

مع أننا لانزال في أول الخريف .

(يسمع أنين خلف الشراع)

هيكارو : ماهذا ؟

السيدةروكوجو: ماذا ؟

هيكارو : لم أستطع أن أسمع جيداً ، ولكن يبدو وكأن شخصا كان يئن .

السيدةروكوجو: (تصغي جيداً) : إنه صوت الصاري .

هيكارو : لقد تغير اتجاه الريح ، أليس كذلك ؟ (يقوم بحركات توحي بأنه يعدل الشراع) أرى الأعشاب التي على الشاطىء بوضوح الآن . أخذت الريح تجعد وجه البحيرة .

السيدةروكوجو: أجل ، أليس كذلك ؟... أتصور أنك لو أحببت امرأة أصغر مني سناً وأجمل مني بكثير ، لتزوجتها ...

هيكارو : ماذا ؟

السيدةروكوجو: لاأظن أني سأموت بسبب ذلك .

هيكارو : (يضحك) : هذا جميل .

السيدةروكوجو: لن أموت ،ولكن أعتقد أني سأقتلها حتماً . ستغادر روحي جسدي ،حتى وأنا على قيد الحياة وستذهب، لتعذبها . إن شبحي الحي سيعذبها ويؤلمها ويؤرقها ، ولن يتركها حتى تموت . ستموت تلك المسكينة ،بعد أن تسكنها روح شريرة ليلة إثر ليلة .

صوت أوي : (ضعيفاً من بعيد) : النجدة ! النجدة !

هيكارو : ذلك الصوت ثانية ! ماهو يا ترى ؟

السيدة روكوجو: إنه الشراع يخفق مع الريح . إنه صوت الريح .

(ظل أوي وهي تمد ذراعيها في ألم يبرز بوضوح فوق الشراع)

صوت أوي : (عاليا هذه المرة) : آ .. آه ! آ .. آه ! النجدة ! النجدة !

هيكارو : (مصعوقا) : أنا واثق أني سمعت صوتاً !

السيدة روكوجو: لقد كان ذلك صراخ دجاجة ينهش ثعلب رقبتهـــا . لقد حملته الريح إلينا ، من الشاطىء . هذا يدل على مدى اقترابنا منه .

هيكارو : يبدو وكأن شخصاً يوشك أن يغرق .

السيدة روكوجو: يغرق ؟ من ذاك الذي يغرق ؟ إن كان هناك من يغرق، فهو نحن !

صوت اوي : (بوضوح) : النجدة ! النجدة !

هيكارو : إنها أوي .

السيدة روكوجو: (ضاحكة) : كلا ! إنها دجاجة !

هيكارو : أنا واثق أنه صوت أوي .

السيدة روكوجو: لاتتركني !

هيكارو : أنت لاتحتملين ! إنك تعذبين أوي !

السيدة روكوجو: كلا ! ليس الذنب ذنبي . إنه ذنـ ...

(صوت أنين أوي)

هيكارو : أوي !

السيدة روكوجو: حاول أن تمالك نفسك ! أنت لاتحب أوي . انظر إلي . لاتخطىء ! أنت تحبني أنا ! لاتخطىء ! أنت تحبني أنا !

هيكارو : (يهز رأسه) : لا أحبك .

(يواجه الاثنان بعضهما في صمت . موسيقى غريبة . تتنحى السيدةروكوجو عن هيكارو ، تحاول ان تمر خلف الشراع . يوقفها هيكارو . تتخلص السيدة روكوجو منه ببراعة ، وتختفي خلف الشراع . يتبعها هيكارو . يظلم المسرح ، ويتحرك الزورق ـ بمرافقةموسيقىغريبةـمغادر خشبةالمسرح . يضاء المسرح من جديد الى اليسار ،تختفيعندمايختفي الزورق . السيدةروكوجو . يقف هيكارو وحيدا في حيرة واضحة)

هيكارو : (يلتقطسماعةالهاتفالموضوععلىالطاولة، وكأنمافاجأتهفكرةمفاجئة). آلو . . . آلو . . . نعم . الخط الخارجي، من فضلك . . . هل هذا هو الخط الخارجي ؟ لطفاً ، أعطني (تاكانو ٩٩٩) آلو . . هل هذا بيت السيدة روكوجو؟ هل لي أن أتكلم مع ياسوكو ؟ نعم السيدة روكوجو . . إنهاقدأوتمنذ وقت ؟ ماذا ؟ أوت إلى غرفتهـــا ؟ ! آسف ، ولكنه أمر على درجة كبيرة من الأهمية . أيقظها ،من فضلك ! قل لها إن هيكارو يطلبها . إنه أمر مستعجل،أيقظها من فضلك . أجل . . (فترة صمت . ينظر هيكارو بقلق الى سرير أوي،التي تنام بهدوء مستلقية على ظهرها).

هيكارو : آلو . . . آلو . . . هذا أنت ياياسوكو ؟! ماذا ؟ هل كنت في البيت طوال المساء ؟ كنت نائمة ؟! أتكلم مع ياسوكو . أليس كذلك ؟ (مع نفسه) أجل . هذا صوتهاحتماً . . . إذن، فالذي رأيت كان شبحاً حياً . . . أجل . . . آلو . . . آلو .

(هناك قرع على الباب الذي الى اليسار) .

صوت السيدة روكوجو : (من خارج الباب . تتكلم بصوت واضح) هيكارو . لقد نسيت شيئاً . لقد نسيت قفازي ، قفازي الأسود قرب الهاتف . هل تراه ؟ أعطني القفاز من فضلك .

(يمسك هيكارو القفاز بشرود ، ويترك الساعة ثم يمشي الى الباب الذي الى اليسار . يفتح الباب ، ويخرج . وحالما يخرج يصبح صوت السيدة روكوجو على الهاتف عالياً ، الى حد يسمعه الجمهور)

صوت السيدة روكوجو : (من الهاتف) آلو ... آلو ... ماذا في الأمر ، ياهيكارو ؟ ماالقضية ؟ توقظني في منتصف الليل ، ثم فجأة لاتقول كلمة واحـــدة . ماذا تريد ؟ لاتجيب ؟ آلو ، هيكارو ، آلو ، آلو .

(عندما تصدر آخر « آلو » من الهاتف ، تلد أوي ذراعيها للهاتف . ثم — وبصرخة مرعبة — تهمد فجأة فوق السرير وتموت . يظلم المسرح حالا) .

«ستار»

التيارات الفكرية

من حصاد ۱۹۷۰

ظافر عبد الواحد

سأعرض هنا بضعة عشر كتاباً من منشورات ۱۹۷۰ في سورية ولبنان، كُتبت دراسات عن بعضها ، وبعضها يستحق دراسة من اخصائيين ، ويمكن تصنيف هذه الكتب في شعر ونثر ودراسات اجتماعية . فالدراسات الاجتماعية نثر يهتم بالموضوعات الاجتماعية أكثر من المبنى .

الشعر :

وأبدأ بعز الدين المناصرة ، لاتفضيلاً له عن غيره ، وإنما لتميزه بنغمة معينة ، أو لحداثة تجربته الشعرية نسبياً بحيث يمكن اعتباره من ممثلي الشعر الحديث .

المناصرة:

الشاعر محمد عز الدين المناصرة من مواليد فلسطين ، تنقل منذ سنة ١٩٧٠ بين بيروت ودمشق وعمان بعد إقامته خمسة أعوام في القاهرة . صدرت له مجموعتان شعريتان سنة ١٩٧٠ ، بعد اشتراكه مع مهران السيد وحسن توفيق في المجموعة الشعرية (الدم في الحدائق) . (١)

ياعنب الخليل (٢)

قال الشاعر معظم قطع هذه المجموعة قبل أحداث ١٩٦٧ ، وبعضها بعدها . نجد فيها تشاؤم الفتى الذي كان يبحث عن أسباب نكبة ١٩٤٨ ، عندما فوجيء بعدوان ١٩٦٧ . وفيها ست قطع من المجموعة الشعرية (الدم في الحدائق) هي : (ياعنب الخليل) التي تحمل هذه المجموعة اسمها ، و (قفانبك) التي يبدو أنه قالها بعد عدوان ١٩٦٧ ، و (المقهى الرمادي) ١٩٦٧ ، و (موسى ابن أبي الغسان) ١٩٦٧ ، و (زرقاء اليمامة) ١٩٦٦ ، و (رسالة إلى فروننا) ١٩٦٧ .

---

(١) نواف أبو الهيجاء – الحزن والغربة في الحدائق المدماة – مجلة المعرفة – دمشق – تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩ ص ١٥٤ – ١٦٧ .

(٢) عز الدين المناصرة – ياعنب الخليل – منشورات دار العودة – بيروت ١٩٧٠ .

الخروج من البحر الميت [1]

هنا يفيق الشاعر من الصدمة، ليعود إلى التأمل. تتألف قصيدة (الخروج من البحر الميت) من عشر لوحات، لعلها تمثل مراحل تصالب حياة الشاعر مع الناس والقضية. اللوحات هي: (هي والبحر)، (عن الألوان وملحقاتها)، (ليالي المنفى)، (محاولة للخروج)، (الموتى وحقيبة الوحيل)، (ومرت ظعائنهم)، (عن الرفاق والآخرين - تعليقات)، (قبل الخروج بقليل)، (النبي الذي خرج)، (الخروج من البحر الميت).

إلام يرمز البحر؟

حين يقول الشاعر:

ولن يأكل البحر أطرافك الحجرية

نظن البحر عدواً

وحين يقول:

إني من ماء البحر الميت

نظن البحر وطناً

خرج الشاعر من منفاه

خرج الشاعر من جوف البحر

كأنه النبي يونس

لقد نجا وحده من البحر، لذلك لانجد أية كلمة في لوحة (الخروج من البحر الميت). فالخلاص فردي.

---

(١) عز الدين المناصرة - الخروج من البحر الميت - منشورات دار العودة - بيروت ١٩٧٠

شعر :

تحت هذا العنوان أقدم أربعة شعراء هم : منذر لطفي والياس الفاضل وزكي قنصل والأخطل الصغير .

بابل والضوء الجديد[1]

كلما توغل الشاعر منذر لطفي في الزمان ، ابتعد عن عمود الشعر القديم بما فيه من غزل وتقيد بالبحور . فقد بدأ شعر التفعلية في (من اغاني المطر ١٩٦٨) وزادت نسبة الشعر القومي في هذه المجموعة عنها في (أغنية الى حبيبي ١٩٦٢) .

أما مجموعة (بابل والضوء الجديد) التي كُتبت قصائدها خلال السنوات الثلاث التي اعقبت عدوان ١٩٦٧ ، فقد غلب عليها الشعر القومي .

يقول في قصيدة (بابل والضوء الجديد) :

الضوء هذا العام يا أحبتي جديد
و « بابل » الحزينة المنكسرة
و « بابل » الصابرة المنتظرة
و « بابل » الكئيبة الأغلال والقيود
تعصف فيها الريح والأمطار من جديد
تهزها روح الحياة البكر من جديد
فتهرب الذئاب والغربان والأطلال
وتنبت الشمس على السهول والجبال
وتوقظ النيام والأموات والأحياء
و « بابل » قبورها كثيرة الدعاء
قد رفعت شواهداً تضرع للسماء
تستغفر الله كثيراً .. تطلب الرحمة
في موكب الصباح ، في إطلالة العتمة
فما هي بابل ؟ هل هي نحن ؟

(١) منذر لطفي – بابل والضوء الجديد – منشورات دار الثقافة – دمشق ١٩٧٠

وفي الحنجرة جرس مخنوق
وعلى الصدر ثقل سني القحط والعار

هل هو انسان آسيا ، انسان العـــالم الثالث ، الكلمة مخنوقة في حنجرتـــه ، والاضطهاد يجري في دمه ، وينيخ على صدره نتيجة الجوع ؟ لايتكلم خوفاً من التجويع ، وتستمر المجاعة لقعوده عن ممارسة حرية الكلام .

ويقول في قصيدة (قميص يحترق) :

القمصان التي احترقت
حملت رمادها الرياح
إلى هياكل الآلهة
فاستحالت هناك
إلى شرانق
قيل إن حريرها
لاأزهى ولا أحلى

لعلها صلاة الى شهداء الفكر ، فالقمصان هي أجسادهم . وكما أن دودة القز تخنق نفسها في شرنقة تنعم بحريرها ، يضحي رجال الفكر بحياتهم ليعبّدوا لنا درب الحرية . رغـــم التحرر من بحور الشعر ، فإن الموضوعات التي يعالجها الياس الفاضل تشده الى منذر لطفي أكثر مما تشده الى المناصرة .

نور ونار[1]

اعتبر الأديب الراحل فؤاد الشايب هذا الديوان للشاعر المهجري زكي قنصل خصلا من نار حمراء صهباء تخرج من بين أنامل الشاعر ، لتقول لنا بيان ملتهب مايشغل عقل الشاعر وقلبه في يومه هذا ومقامه هنا . فهي مشاغل كل عربي – مقيم او مغترب – ازاء الدور الحاسم الذي تقبل عليه أمة كاملة لتلعب ورقة مصيرها في ملتقيات النار والدخان والتراب. كل فقرة وتر من هذه الأناشيد، تسبيحة بالوطن ، وترنيمة بهواه ، وتسجيعة باكية على نكباته وأوجاعه ، وكل انطلاقة أو لفتة أو اشارة منها دعوة إلى التصاعد والتكامل والتفوق، حيث لاتشير وقائع الأحداث إلا إلى كل نكسة مريرة وهزيمة فادحة . فالشاعر هنا لايرغ جبينه بالتراب أو بنفش شعره نادباً قاذفاً كريهته وشاحذاً باليأس والأسى قريحته، بل يؤمن بمصير أمته ويجد انتصارها . ولايلتفت إلى مرمى حجر قريب عن يمينه أو شماله ليسجل نَظماً سياسياً يلقي فيه اللوم على حزب ما، أو على سياسة ما، أو على دولة ما، أو على قيادة ما، بل إن النكبة عامة في نظره والتبعات عامة مثلها. « وإن كنا نرى الشاعر في بعض مراراته يعض على شكيمته ضاجاً بألمه ويجرح حيث يوجد الجرح فيلتكاه ، فليس ذلك إلا تعبيراً عن تحزن عام ينظر من خلال أنواره المخنوقة وأعلامه المنكسة إلى شعب يثور وامة تنهض[2] »

ويتركنا فقيد الأدب العربي فؤاد الشايب في حميا حوار عنيف مع الشاعر قنصل في طلقته الشعرية المدوية :

سأخنق جرحي بين الضلوع وأقسو على دمعي المسبل

وهي على وزن « سأحمل روحي على راحتي »

نظم زكي قنصل قصيدة (نور ونار) في الذكرى الثانية لجلاء قوات الاحتلال عن سورية ، ونظم لنفس الذكرى عام ١٩٥١ قصيدة (كفرت بالعيد) لما رأى الاحتلال الاستيطاني في فلسطين .

---

(١) زكي قنصل – نور ونار – منشورات دار مجلة الثقافة – دمشق ١٩٧٠

(٢) من مقدمة الديوان .

الأخطل الصغير[1]

يقدم لنا هنا الأديب السوري سعد صائب مجموعة من قصائد الأخطل الصغير . يشرح لنا الشاعر اللبناني بشارة الخوري (١٨٨٤ – ١٩٦٨) لماذا استعار اسم الأخطل : « كانت الحرب العالمية الأولى . ثم كان عهد (جمال) في سورية ولبنان ، وهو عهد النفي والمشنقة ، بل عهد الارهاب بجميع أسبابه وأنواعه . وانطوت الأعوام بعد الشهور على حالات شتى من البؤس ، ومفاجآت مفعمة بالمخاوف ، حتى كان تموز من عام ١٩١٦ فاذا أنا مطمئن قليلا إلى نفسي ، آنس كثيراً بكتبي بعد طويل وحشة وأليم غربة ، ولقد كنت وسائر الناس خلال ذلك نتنسم الأخبار عن البادية حيناً وعن البحر حيناً آخر ولاندري أيدر كنا السلم وفينا رمق من الحياة . وكانت الفكرة السائدة أن الحلفاء سيبعثون الامبراطورية العربية ، وكانت الحاجة ماسة إلى إثارة الخواطر في البلاد تعجيلا ليوم الخلاص ، وهو كل أمنية البلاد العربية في ذلك العهد . ولم يكن ليجرؤ أحدنا – ولو في الحلم – أن يرسل كلمة في سبيل النهضة – ولو همساً – فكيف به إذا هو شاء أن يرسل في ذلك السبيل قصيدة يترجع صداها . وكان يعجبني من الأخطل خفة روحه وإبداعه في اصطياد المعاني ، يقودها ذلية إلى فصيح معانيه . وفوق ذلك ، فقد كان الشاعر المسيحي الفذ ، تتفتح له أبواب الخلائف يلؤها لذة وطرباً وإدلالا ، بل يلؤها ذلك الشرف الذي لايبلى والمجد الذي لايفنى . فرأيت وأنا أدعو للدولة العربية – وموقفي منها موقف الأخطل من دولة بني مروان – أن أدل على حقيقة الشاعر المفكر . فلم أر كـ « الأخطل الصغير » أوقع به ما كانت تقطره القريحة المتألمة من شعر ، لم يبق لي منه إلا كبقية الوشم في ظاهر اليد[2] » .

---

(١) الأخطل الصغير – قصائد اختارها وقدم لها سعد صائب – منشورات دار مجلة الثقافة ـ ١٤٣ ـ دمشق ١٩٧٠

(٢) من مقدمة الشاعر لديوانه (الهوى والشباب)

النثر :

يمكننا تصنيف هذه الكتب إلى موسوعية ورواية ومسرحية .

الموسوعة :

أقتصر على عرض نموذجين هما : (قاموس إحيـــاء الألفاظ) و (الإنسان) .

قاموس احياء الالفاظ[1]

عرضت في العدد ٧٣ (آذار – مارس) ١٩٦٨ من مجلة (المعرفة) الطبعة الأولى من الجزء الأول من هذا القاموس . وقد أعاد المؤلف طباعة هذا الجزء طبعة ثانية ، كان أحرى به أن يسميها الطبعة الأولى من الجزء الثاني . فهو لم يأخذ من الطبعة الأولى غير أسماء الصحراء وخيل رسول الله ومدينة بغداد . بل إنه عدل في هذه الاسماء ، فحذف بعضها وبدل أسماء بأسمـــاء . ففي أسماء الصحراء جاء بـ (قرقر) بدل (البلقع) . والقرقر عند الطيبي هي البارزة . والبلقع في القاموس المحيط هي الأرض القفر . وجاء الطيبي بـ (فردين) بدل (الفدفد) . جاء في المحيط « لقيته فردين أي لم يكن معنا أحد والفردين فلاة » و « الفدفد الفلاة » . وجاء الطيبي بـ (يهماء) بدل (اليهماء) واليهماء مؤنث أيهم . جاء في المحيط « والميهم كمكرم المغلق من الأبواب والأصمـــت كالابهم ومن المحرمات مالايحل بوجه كتحريم الأم والأخت » « واليهماء الفلاة لايهتدى فيها » ، ولعل اليهاء كانت خطأ مطبعياً في الطبعة الأولى . وجاء الطيبي بـ (مهراق بدل (مهرق) . جاء في المحيط « هراق الماء يهرقه بفتح الهاء هراقـة بالكسر وأهرقه يهريقه إهراقاً وأهراقه يهريقه إهرياقاً فهو مهريق وذاك مهَراق ومهْراق

(١) أسامة الطيبي – قاموس إحياء الالفاظ – الجزء الاول – الطبعة الثانية – مطبعة الاحسان – دمشق ١٩٧٠ .

صبه » و « المهرق كمكرم الصحيفة معرب ج مهـــارق والصحراء الملساء » فالمهراق في الطبعة الثانية خطأ مطبعي .

الانسان (١)

يقول المفكر الفرنسي جان روستان في مقدمة الكتاب : « أصبح علم الحياة ضرورياً لمناقشة جميع المشاكل الانسانية ؛ فبدون المعلومات التي يوفرها لنا لا يستطيع الباحث أن يمس هـــذه المشكلات مهما كان نوعها : اجتماعية أم أخلاقية أم فلسفية . وهو يمكننا من تعيين مكان الجنس البشري في عالم الأحياء، هذا الجنس الوقح الذي ما يبرح راغباً باعطاء ذاته مكانة ممتازة ، كما أنه يبين لنا كيفية ارتباط الانسان ببقية أجزاء الكون ويمكننا من تبين السبل التي سلكتها الطبيعة حتى آلت الى هذا الشيء الفريد حيث ـ بآن واحد ـ تخطت ذاتهـــا وأنكرتها . وهو ـ أيضاً ـ يدلي لنا بمعلومات عن الانسان فرداً . الى أي العلل نعزو تنوع البشر ، وما نشاهده بينهم من عدم مساواة ؟

ما مدى ما للوراثة وظروف المحيط من تأثير حاسم في إنشاء الشخصية الفردية ؟

ما مدى الدوي الذي أحدثته مرتبة الحضارة في الحيوان الانساني ؟ تلك بعض المسائل التي يعالجها هذا الكتاب ، وهي بغنى عن تبيان خطورتها » .

ويتساءل روستان عما اذا كان باستطاعتنا استخلاص نتائج اجتماعية أو سياسية من علم الحياة ؟ ويرى عجز العلم عن فرض أي مذهب . فهو يعلمنا تمايز

(١) Jean Rostand - L' homme - Collection(Idées)- Gallimard - Paris
جان روستان – الانسان – ترجمـة د . عدنان التكريتي – منشورات وزارة الثقافة – دمشق ١٩٧٠

الناس بالوراثة ، وليس عنده ما يقوله عمـــا يجب فعله تجاه اللامساواة الطبيعية . يمكن للانسان تحت تأثير أسباب نفسية واجتماعية ، الرضى بمجتمع كمجتمعنا لا يقوم على المساواة كما يمكنه تمني قيام مجتمع لا يقيم وزناً إلا لعـــدم المساواة الطبيعية ، او تمني قيام مجتمع فيه المساواة تامة . نستطيع الرضوخ للطبيعة ، او معارضتها . والمهم في الحالتين معرفتها، حتى نعمل في نور الفكر. لو كان على جان جاك روسو إعادة كتابة رسالته اليوم عن« أصل عدم المساواة »، لما كان بامكانه اهمال معطيات علم الوراثة . عالم الحياة انسان له ميوله ، ولكنه لا يقيم وزناً إلا لما هو موجود فيقول الحادثة ويبين نتائجها وعلى غيره البناء عليها .

الرواية والمسرحية :

أقدم هنا رواية (الأبتر) ومسرحية (وبعدين ؟) .

الأبتر (١)

لعلها اول رواية يكتبها الشاعر السوري ممدوح عدوان . استوحاها من عدوان ١٩٦٧ . قصة عجوز أبتر من محافظة القنيطرة السورية ، يأبى النزوح من قريته (المنصورة) .

« وحتى حين جاء ذلك الضابط الاسرائيلي ومعه بعض الجنود وأمروا أهل القرية أن ينزحوا وان الجنود سيعودون لقتل كل من يبقى الى ما بعد ساعتين، فقد عاد الى بيته بعد أن سمع ما سمع وكأن الكلام لم يكن موجهاً اليه »

وبقي وحده في القرية واقتصر دوره على إيواء الفدائيين .

« هل هو ضروري؟ نحن نبقي أسماءنا سراً ، ونحمل اسماء مستعارة » .

واستشهد العجوز .

(١) ممدوح عدوان - الأبتر - دمشق ١٩٧٠

« كان الدم النازف من عنقه قد اختلط بالتراب تحته ، اختلج قليلا فانجبل التراب الدامي على وجهه الذي انكفأ مع الشهقة الأخيرة »

تقع الرواية في تسعة فصول ، يمتزج فيها السرد بالتحليل . واقعية السرد مباشرة لا رمز فيها ، مع ان (عدوان) يلتزم الرمز في شعره . واذا كانت الرواية تربحنا من العقدة ، فانها لاتخلو من تحليل لنفسية هذا العجوز العامي الذي لم ينهزم مادياً او معنوياً .

وبعدين ؟[1]

وليد مدفعي صيدلي سوري ، لا أدري اذا كان افتتح صيدلية . ولكنه يهتم بكتابةالقصص والمسرحيات بأسلوب ساخر .

ليس في تقنية المسرحية تجديد ولكن فيها محاولة لفضح الزيف الاجتماعي .
« تعبان : — والله يا دكتور . بحضوري وبغيابي ، أحوال الشركة فوضى ، لكن أنا أحوالي ضيقة ، وفوق ذلك أعطيت وعداً لضيوف بأن أقدم لهم شيئــاً من الحلوى وقليلا من الفاكهة . أرجوك يا دكتور أن تساعدني في هذا المجال .. »

هنـاك حديث نبوي عن شموس غير شمسنا ، وأوادم غير آدمنا . وفي المسرحية كائنات من كوكب غير كوكبنا ، تفوقت علينا علمياً .

في مأدبة أفلاطون يروي أرستوفان أسطورة المخلوقات التي كان لهاضعف عدد أعضائنا ، فلما خشيت الآلهة قوتها شطرتها شطرين فكان الذكر والأنثى ؛ وأصبح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر .

---

(١) وليد مدفعي — وبعدين .. ؟ — الطبعة الأولى — دمشق ١٩٧٠

فهل الكائنات الفضائية في مسرحية (وبعدين ؟) ملائكة تنفذ الأوامر الإلهية ، أم مخلوقات تتحدى القدرة الإلهية ؟

فالكائن الفضائي (الصاعق) ، يتلقى أمراً بالقضاء على الانسان (تعبان) :

« الصاعق : ـ (الى الجمهور) المواطن تعبان أو السيد تعبان .. سيخرج بعد قليل من العيادة . وهو لا يحمل عاهة وسالم من الأمراض . ولا يوجد أي احتمال لموته ، ولكنه مع ذلك سيموت أمامكم بعد لحظات . وسيصبح رقما في سجل الوفيات ، وسيجد دفان الأموات رزقاً حلالاً في صباح الغد . »

ثم يطلب (الهامس) من (الصاعق) إحياء (تعبان) ، فيقول الصاعق :

« تبدلت الأوامر سابقاً في مدينة أور .. فنجا من الاحتراق بالنار انسان مازلنا نقع بالمشاكل من أجله حتى اليوم »

فالصاعق يتلقى أوامر إلهية ، كالتي جعلت النار برداً وسلاماً على ابراهيم .

الدراسات الاجتماعية :

يمكن تقسيم هذه الدراسات الى قومية واشتراكية .

الدراسات القومية :

أعرض هنا كتابين : (اقتصاد سورية الحديثة) ، و (الوحدة هي الحل) .

اقتصاد سورية الحديثة (١)

اعتمد الصحفي السوفييتي ف .ب. فيكتوروف على مشاهداته في سورية والصحافة اليومية في تشخيص الاقتصاد السوري . وقد صنفت هذا الكتاب مع

(١) ف . ب فيكتوروف ـ اقتصاد سورية الحديثة ـ ترجمة هشام الدجاني ـ دار البعث للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق ١٩٧٠

الكتب القومية ، لأنه خاص بقطر عربي . ولكن الرؤية الماركسية الواضحة للمؤلف ، تجعله يقسر الحوادث على الدخول في قالبه . فلابد من انتقال سورية من الاقطاعية الى الاشتراكية عبر الرأسمالية . دفعت الرغبة في تحصيل المزيد من الثروة بعد الحرب العالمية الثانية بالبورجوازية الى بناء المؤسسات الصناعية ومنها الشركات المساهمة .

ويرى المؤلف انقلاب ٢٨ آذار عام ١٩٦٢ ،نتيجة لتزايد سخط الجماهير الكادحة واحتدام الصراع الطبقي .

ويعتبر المؤلف انخفاض أسعار الأسهم من أسباب التأميم ، ولا يعتبر التهديد بالتأميم سبباً لانخفاض أسعار الأسهم .

ويشير المؤلف إلى صلاحية رئيس مجلس الإدارة في نظام الإدارة الذاتية ، هذه الصلاحية التي تصل إلى درجة إلغاء أي قرار يتخذه المجلس الذي يضم العمال ، رغم أن وزير العمل كان يعين هؤلاء الأعضاء .

ويدعي المؤلف أن أعلى أجر شهري (في صناعة النفط) يصل إلى ٢٢٠ ل.س . مع أن العمال يتقاضون أعلى من هـــذا الأجر في مهن أخرى ، كالحدادة .

ويمضي المؤلف في دراسة صناعة النسيج، والصناعة الغذائية، وصناعة مواد البناء، وصناعة النفط، وصناعة توليد الطاقة الكهربائية. وينظر إلى آفاق نمو الصناعة . ويشرح الروابط الاقتصادية الخارجية ، ودورها في تنمية الاقتصاد السوري .

الوحدة هي الحل (١)

يلخص هذا الكتاب بعض مشكلات الوطن العربي ، كالتخلف والأطماع

(١) عيسى عجي ـ الوحدة هي الحل ـ دمشق ١٩٧٠

الخارجية في الوطن العربي ، ويعتبر المؤلف الوحدة حلاً لهذه المشكلات . وهو توفيقي ، يتصور أربع وحدات : الهلال الخصيب (سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والكويت وعربستان) وحوض وادي النيل وليبيا (مصر والسودان وليبيا والصومال وأريتريا) والجزيرة العربية (السعودية وإمارات الخليج ومسقط وعمان والمحميات واليمن) والمغرب العربي (تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا) .

ويرى عيسى عجي « أن قيام أربع وحدات في الوطن العربي ليس بديلاً للوحدة العربية بل هو تمهيد لها ، وأن التطور الطبيعي للوحدة العربية كان يمكن أن يتم بهذا الشكل وعلى مراحل إلى أن تتحقق الوحدة العربية الشاملة . »[١] .

ويعتقد المؤلف أن أهمية المرحلة التي تمر بها الأمة العربية وخطورتها تفرض قيام وحدة فورية بين مجموعتين هما : مجموعة أقطار الهلال الخصيب ، ومجموعة أقطار واديالنيل وليبيا . مع العلم بأن الكتاب صدر قبل دخول سورية (من الهلال الخصيب) في الاتحاد الثلاثي (من وادي النيل وليبيا) ، بل وقبل إعلان طرابلس .

ويتخذ المؤلف ميثاق ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٦٣ - بين سورية ومصر والعراق - أساساً لهذه الوحدة . فيقترح عقد مؤتمر قمة لدول المواجهة مع إسرائيل لتوقيع ميثاق جديد للوحدة ، على أن يتم خلال ١٥ يوماً استفتاء لمعرفة رأي الشعب في الوحدة .

---

(٢) ص ٣٠٥ من الكتاب

الدراسات الاشتراكية :

أعرض هنا كتابين هما : (الإنماء والاشتراكيات) و (مخطوطات ١٨٤٤) .

الانماء والاشتراكيات[١]

اشترك في تأليف الكتاب (رينه ديمون) و (مارسيل مازويه) الأستاذان في المعهد الزراعي الفرنسي ، وهو يتألف من ثلاثة أقسام .

يفضح ديمون ، في القسم الأول ، الأسباب التي خاضت الدول الرأسمالية حروباً من أجلها . ويحاول ، في القسم الثاني ، دراسة المنجزات التي حققها العالم الثالث في تجاربه الاشتراكية .

ويدرس مازويه ، في القسم الثالث ، المنجزات الجزائرية . ويرى عجز الرأسمالية عن تطوير الدول المتخلفة .

ويعالج ديمون طريقة التوفيق بين الاشتراكية والحرية . ويرى بحث الإنسانية عن توازن بين (السلطة) و (الحرية) الضروريتين و (العدالة) التي يرغب الشعب فيها ، ويشرح سعي شرفاء الاشتراكيين في سبيل العدالة الاجتماعية . ويروي ما أوضحه له أحد طلبة حركة ١٩٦٨ : الشروع بممارسة العفوية الثورية لدى الجماهير .

---

(١) رينيه ديمون ومارسيل مازويه ـ الإنماء والاشتراكيات ـ ترجمة عبد الكريم سعود ـ دار البعث للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق ١٩٧٠

مخطوطات ١٨٤٤ (١)

يضم هذا الكتاب ثلاث مخطوطات لماركس في الاقتصاد السياسي والفلسفة ، طبعت بعد وفاته بكثير . اعتمد الياس مرقص في الترجمة على الطبعة الفرنسية ، التي تضم مقدمة بوتيجلي وملاحظاته . وتبين هذه المخطوطات الانعطاف من الاقتصاد الكلاسيكي إلى الاقتصاد الماركسي ، ومن هيجل إلى ماركس . وتشرح المفاهيم الأساسية التي قامت عليها الماركسية ، وماياخذه ماركس على الاقتصاد البورجوازي .

---

(١) KARL MARX - MANUSCRITS DE 1844 (Économie Politique et Philosophie) Présentation, traduction et notes d' Émile Bottigelli, Agregé de l'Université - EDITIONS SOCIALES 168, Rue du Temple, Paris (3e) Service de Vente : 24, Rue Racine (6e) Achevé d'Imprimer le 10 Mai 1968 en Pologne. № d'édition : 1.037. Dépôt Légal : 2e Tremestre 1968.

كارل ماركس - مخطوطات ١٨٤٤ الاقتصاد السياسي والفلسفة تقديم وشروح أميل بوتيجلي - ترجمة الياس مرقص - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٠ .

مقدّمة لمسرح فلسطيني

نواف أبو الهيجاء

الزمان ، المكان ، الشخوص ، الحدث .. وحدات متكاملة متضامنة تشكل الأساس المتين للعمل الفني الذي يطلق عليه اصطلاح « المسرح » . ومسارح العالم لها تقاليدها (حتى شكل بناء المسرح – المبنى) . فالمسرح الاغريقي هو غير المسرح الاليزابيثي ، والأخير هو غير المسرح الافرنسي أو الأمريكي . وحتى المسرح الانكليزي ، تطور عبر قرون متبعاً بذلك تطور الحياة الاجتماعية في بريطانيا ذاتها . والمسرح المصري أصبح له تراث كبير ، وبذلك بدأ يكتسب الصفات الملازمة له .

هذه الأمور المختصة بقضية البناء الفني والتقني والموضوعي في حركة المسرح تتبع أساساً – من خلال تطور مفهوم المسرح – من محاولة الترفيه أو القيام بطقوس دينية ، إلى التعبير عن حاجات اجتماعية وسياسية واقتصادية أي مرآة تعكس « واقع » و « تطور » و « تطلع » المجموعة البشرية التي بني من أجلها المسرح و كتبت عنها ولها النصوص وقدمت . ولأن الجمهور – أخيراً – هو حجر الزاوية الأول في عملية بناء مسرح متكامل يؤدي وظائفه .

قد يقال إنه ينبغي لي التحدث عن « المسرح العربي » – أولاً وأخيراً – ولا يسمح لي ، لاعتبارات قومية ، بالتحـــدث عن مسرح « فلسطيني » وآخر « مصري » وثالث «سوري» . بيد انني اقول ان المرتكزات والمبررات التي على اساسها تم قبول مصطلحات اقليمية في الوطن العربي نبعت من ان الواقع العربي ، بمجموعه ، واقع مجزأ سياسياً بالدرجة الأولى والأخيرة . (لهذا فانني احدد مفهوم الاقليم بأنه مايقع ضمن الحدود التي اوجدها الاستعمار منذ الحرب العالمية الأولى بين اجزاء هذا الوطن الواحد) . ان التجزئة هي التي اوجـــدت مصطلحات ومشكلات محلية في كل اقليم عربي على حدة جعلت من العمل الفني المنتج في مصر مثلاً ، يحمل « نكهة » خاصة .. نكهة مصرية عربية . من المؤكد أن ثمة تشابهاً كبيراً بين المشكلات التي يتعرض لها المسرح المصري وبين المشكــــلات التي يعرضها المسرح المغربي ، مثلاً ، إلا ان الواقع الموضوعي فرض تمايزاً ، طفيفاً ، حتى في تركيب « الشخصية العربية » التي تعيش ضمن كل اقليم . فمسرحية « السعد » مثلاً يحمل نكهة مغربية (وان كانت مستوحاة من اجواء وحــكايا اسطورية عربية) . كما ان قضية « الفولكلور الشعبي » تلعب دوراً اساسياً ورئيسياً هاماً في ايجاد الصبغة الخاصة التي اسميناها « النكهة » . وان الواقع الموضوعي الراهن

للأقاليم العربية يفترض ان اقول : ان مشكلة تحديد النسل في مصر ، مثلاً ، لاتوجد في سورية ، وان مشكلة انتشار الأمية في الجزيرة العربية هي غيرها في لبنان او تونس . من هنا كان للجزئيات - التي وجدت بفعل عامل موضوعي تماماً هو السيطرة الاستعمارية التي امتدت إلى قرون وإلى مؤثراتها التي ترسخ قسم كبير منها - الأثر الأكبر في ايجاد منطلق عام يمكن الاستناد إليه عند الحديث عن مسرح « جزائري » و « مغربي » وآخر « مصري » الخ .. اما مجموع هذه الاصطلاحات الاقليمية - على المسرح والطبيعة - فانها تشكل « المسرح العربي » في واقعه الراهن . نحن نستطيع التحدث عن « مسرح عربي » عندما تكون هناك وحدة عربية كاملة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وتربوياً وثقافياً ... الخ .

هذه الأمور دارت في ذهني وانا احاول ان ابحث عن مخرج لحل إشكال اساسي يتطلبه واقع سياسي واجتماعي يعيشه الشعب العربي الفلسطيني . قد نستطيع القول دون اي مبالغة انه لايوجد مسرح فلسطيني حتى الآن . لكن الواقع الذي سينعكس على خشبة هذا المسرح موجود - فعلاً - منذ اكثر من اثنين وعشرين عاما . هذه الكتلة البشرية التي كانت في فلسطين وعاشت فيها مئات السنين والتي قدر لها ، بفعل جملة عوامل ان تهزم وتشرد ، تعاني ، منذ اكثر من عشرين عاما ، مما يلي :

أولاً - تشتت اجتماعي بسبب التشرد والنزوح واللجوء ، هذا التشتت فرض نفسه على مسرح الأحداث العالمية - ذاتها - دون ان يتأتى لأحد مناقشته واقعاً معاشاً مضت عليه فترة طويلة من الزمن . كان التشتت الاجتماعي نتيجة الانتشار الاجباري لهذا الشعب ، وتوزعه في شتى الاصقاع .

ثانياً - تمزق سياسي وفكري نتيجة الأوضاع التي عاشها هذا الشعب في

المنفى ، هذا التمزق حمل في طياته جميع التناقضات السياسية والفكرية والاجتماعية العربية .

ثالثاً – خلقت ، خلال السنوات الماضية ، سنوات النفي ، تقاليد خاصة وعادات خاصة (إلى جانب التمتع الأصيل بفولكلور خاص) ، وأوجدت في الوقت نفسه ، وبحكم هذه الظروف ، تيارات ومشكلات « خاصة » بالشعب العربي الفلسطيني ، وان كانت في معظمها تعني المجموعة العربية بأسرها . غير ان هذا لاينفي « تفرد » الشعب العربي الفلسطيني عن غيره من شعوب الأمة العربية ببعض « الخواص » ، السلبية منها والايجابية .

هذه العوامل هي التي جعلتني افكر بشيء اسمه « المسرح الفلسطيني » . ترى ما هي خصائص هذا المسرح ؟

وهل يمكن ان نعتبر كل مسرحية تتحدث عن القضية الفلسطينية هي مسرحية فلسطينية ؟ طرق هذا السؤال منــذ زمن ، ولكن بصيغة اخرى : هل كل مايكتب من ادب عن القضية الفلسطينية هو ادب فلسطيني ؟

وكانت اجابتنا الدائمة هي : كل مايكتب من ادب عن القضية الفلسطينية ليس اكثر من ادب قضية (بمعنى انه يحاول التعبير عن احدى اهم مشكلات الوطن العربي بالنسبة للأدب العربي – مسرحية النار والزيتون مثلا لألفريد فرج – او احدى مشكلات العصر الحديث – المشكلات الانسانية بالنسبة للكاتب الأجنبي – كروايات اثيل مانن)

اما يكتبه العربي الفلسطيني عن المجموعة البشرية الفلسطينية – بصفته واحــداً منها ومن اجلها بالذات – فانه الادب الفلسطيني بعينه . (كتب معظم

الشعراء العرب عن القضية الفلسطينية ، ولكن مايكتبه محمود درويش وسميح القاسم والزياد وعز الدين المناصرة وغيرهم من شعراء فلسطين يحمل النكهة الفلسطينية التي نعنيها) . كثيرون هم الذين يستوحون من فيتنام ومن كوبا ومن نضال الشعوب الاخرى ويكتبون اعمالا فنية ، ومع ذلك لايسمى أدبهم باسم الشعوب التي كتبوا عنها .. يدخل هذا ضمن باب الادب الانساني . بيد أنني اقرأ كثيراً لكتاب فيتناميين عن فيتنام بالذات ، وهذا ما اسميه – ويسميه الجميع – بـ « الأدب الفيتنامي » .

مـاذا بالنسبة لميزات المسرح الفلسطيني المطلوب ، بناء على ما عرضناه وعرفناه عن حالة الشعب العربي الفلسطيني ؟

أقول :

اولا :

تنتفي الوحدة الزمانية والمكانية في المسرح الذي اتحدث عنه ، بسبب طبيعة الظروف الاجتماعية التي يعيشها عرب فلسطين . فاذا تحدثنا مثلا عن عائلة « س » الفلسطينية في عمل فني ما - مسرحي بالذات - فينبغي لنا إدراك مايلي :

ا – الاب والأم وبعض الاولاد : في الاردن

ب – الابنة الكبرى – متزوجة من فلسطيني – في الضفة الغربية

حـ – الاخ الاوسط يدرس في دمشق

د – الاخ الاكبر يعلم في السعودية

هـ – أحد الاولاد في العمل الفدائي

و – الاطفال اشبال !

من هنا انتفت وحـــدة المكان أساساً ، اما انتفاء الوحدة الزمانية فمرهون بطبيعة العمل الفني . المسرحية الفلسطينية مرغمـــة على الانتقال من الاردن ، الى سورية ، الى السعودية ، الى الارض المحتلة . في هذه النقلات — المكانية - لابد من اعتراض نقلات زمانية محددة بسبب و اختلاف اعمار افراد هذه الاسرة » فالاب يعيش في : « حاضر — تشرد » ، « ماض — نضال — تشرد » ، «مستقبل - غامض » . كذلك هي حال الأم . اما الأخ الاكبر فهو يعيش في : « حاضر - تشرد - نضال »، « ماض - تشرد »، «مستقبل - نضال ». اما الإطفال فهم يعيشون في « حاضر - نضال » فقط !

ثانياً :

تفكك رابطة الحدث . فالمسرح الفلسطيني المطلوب لابد من توقفه عند الاحداث الآنية توقفاً مجدياً ، هذا إن لم يعد إلى الماضي البعيد :

ا - ثورات وانتفاضات ١٩٢٩ - ١٩٣٥ - ١٩٣٦ - ١٩٣٩

ب - تشرد ١٩٤٨

حـ - معركة ١٩٥٦

د - حزيران ١٩٦٧

هـ - ايلول ١٩٧٠

و - ماسوف يطرأ

من هنا كان الخيط الذي يربط هذه الاحداث . انها جرت جميعاً ، ودون استثناء ، اما من اجـــله او منه او بسببه او له . انها تمسه جميعـــاً مسأ مباشراً . ولانستطيع ان نقول انهـــا تمس الانسان العربي في المغرب

او تونس بنفس الدرجة او الحدة التي تمس بها الفلسطيني (من وجهـــة نظر الحدث - المتلقي) .

ثالثاً :

تشابك الاحداث ، كثرتها ، تدفقها ، وتشتت وتعدد الشخوص - الفكري والاجتماعي - والامتداد التاريخي - الطويل منه والقصير - كل هذه الامور خواص أساسية وميزات ينفرد بها المسرح الفلسطيني الذي نبحث عنه .

رابعاً :

الشخصية الفلسطينية منفية في المسرح وفي الحقيقة الموضوعية ، نحن إلى فلسطين ، تبحث عن لقـــاء اجتماعي نضالي سياسي ، محاصرة مهددة في المنفى ، لا تقف على ارض صلبة أو شبه ثابتة . ومن هنا فالمزاج الشخصي الفلسطيني - على المسرح والطبيعة - مزاج خاص متفرد . لو جمعت شخصيات عربية في مسرحية واحدة ، لوجدت الشخصية الفلسطينية تمسك مباشرة بالحدث وتلقيه في وجهك .. تصل قلبك قبل كل شيء بشيء واضح من الانفعال تختلف شخصية « الاب - الكهل - الشيخ » اختلافاً بسيطاً عن شخصية (الشاب) الفلسطيني ، ولكنها تختلف اختلافاً كبيراً عن شخصية « الأب - الكهل - الشيخ » العربي الآخر ومن أي قطر كان . للفولكلور هنا دور مؤثر وواضح .

يتبع المسرح من حيث الحركة - للشخصية والحدث - المجموعة البشرية التي يقدمها ولها ويتحدث عنها ومن أجلها . ومن هنا أرى «التشتت» أهم خواص المسرح الفلسطيني ، تشتت الحدث - الشخوص - الزمان - المكان .

لا أزعم كمال تجربتي هذه[1] ، ولكنها مجرد محاولة ممهدة لما يمكن تسميته « المسرح الفلسطيني » الذي يؤلف حلقة في سلسلة تكامل الشخصية الفلسطينية والتي تحاول القوى المعادية جميعاً أن تطمسها او ان تنفيها او حتى تبيدها . يعبر المسرح ، مظهراً حضارياً أصيلاً ، عن روح « المجموعة البشرية » التي يكتب عنها ولها . ومن هنا كان المسرح الفلسطيني مدماً كاً هاماً وضرورياً في بناء « الشخصية الفلسطينية » .

عندمايرجع هـــذا الشعب إلى أرضه ، ستتغير طبيعة المسرح الفلسطيني الراهن « المشتت » . وعندماتقوم الوحدة العربية سيصبح في حكم غير الموجود إطلاقاً ، لأن « المسرح العربي » هو الذي سيفرض وجوده .

(١) اشارة الى تجربة الكاتب في مسرحيته « الخسوف » ، والتي ستنشر قريباً .

راي في عدد المعرفة السابق

هذا النقد

فاضل السباعي

اصدرت مجلة « المعرفة » ، في مطلع شباط ١٩٧١ ، عدداً خاصاً حمل عنوان « القصة المعاصرة في سورية » ... فاستشعر كتاب القصة سروراً : فما هي ذي مجلة وزارتنا الثقافية تولي القصة اهتماماً وأي اهتمام اذ تفرد لها عدداً كبير الحجم جم المحتوى .

ولم تطربني ، في الحق ، وفرة صفحات العدد (٣٢٠ صفحة) ، ولا القصص بين جلدتيه (احدى عشرة قصة) ، ذلك ان القصص السورية تقرأها منشورة في سائر الدوريات ، من يومية واسبوعية وشهرية ، هذه التي تصدر في سورية أو تلك التي تردنا من لبنان ومصر وغيرهما . ولكن أبلغ ماسرني أني وقعت ، في العدد ، على عنوانات « بحوث » أربعة تتصل أوثق الاتصال بـ « القصة المعاصرة في سورية » ، وقد تسمى كل بحث منها بتسمية تلفت الانتباه :

● « المؤثرات الأجنبية في القصة السورية الحديثة » للدكتور حسام الخطيب (٢٨ صفحة) .

● « تقنية القصة القصيرة في سورية خلال ربع قرن » لخلدون الشمعة (٢٩ صفحة) .

● « البحث عن هوية القصة القصيرة في سورية » لبدر الدين عرودكي (٢٩ صفحة) .

● « الاتجاهات الأدبية لفن القصة القصيرة السورية » لرياض عصمت (٥٠ صفحة) .

الا ان سروري لم يدم طويلاً ، على الرغم من طمأنة السيد رئيس التحرير لنا ، في تقديمه : « لقد تضمن هذا العدد الخاص عن (القصة السورية المعاصرة) بحوثاً تحليلية نقدية لم يسبق ان عولجت موضوعاتها ، من قبل ، بمثل هذه الدقة والموضوعية » . ذلك اني وجدت « النقاد » « الباحثين » (عدا اولهم) وقد نأوا بأنفسهم عن الدقة والموضوعية جميعاً ، مثلما نبا بهم « التعبير » العربي الصحيح في ماكتبوا وعبروا ، وذلك - كما أحسب - ليس من دأب الكاتب العربي الذي يتصدى لهذه المهمة الخطيرة الا وهي : رصد فن من فنون الادب ، في حقبة من الحقب قريبة أوبعيدة .

فأما الدقة والموضوعية في تقييم القصص والحكم على أصحابها ، فقد افتقدناهما في مواضع كثيرة من البحوث الثلاثة : لقد بدا لنا « النقاد » مبهورين بالجديد - وليس الأصيل - من فنون القصة و « تقليعاتها » و « صراعاتها » ! فالجديد هو الذي يرضيهم . وأما كتّاب الخمسينات - وهي أغنى فتراتنا الأدبية بنتاج هذا الفن الوليد الجميل - وأما من سبقوهم ، من أمثال : شوقي بغدادي وبديع حقي وفاتح المدرس وزرزور ومحمد حيدر وبحرة وجورج سالم وعبد الرحمن البيك وعلي بدور والعجيلي ومظفر سلطان ووداد سكاكيني ومراد السباعي وصفدي ولوقا ومدفعي والكياليين ، وسواهم ... فقد لاح كما لو أن بين «باحثينا» الثلاثة اتفاقاً على الغض من شأنهم ، بل على نبذهم . لماذا ؟ لأن « عصرهم » - الخمسينات وما سبقها - قد دال ، فهم لا يكتبون وفق مذاهب « الانطباعية » و « التعبيرية » وسواهما ! فماذا ترامى للثلاثة أن يتوقفوا قليلا عند الدكتور عبد السلام العجيلي ، فليس من أجل أن يقيموا مجموع نتاجه الزاخر ، بل ليقولوا كلمة عابرة في « أولى » مجموعاته القصصية « بنت الساحرة » - ولعلها أضعف ما كتب - لأنه بها قد دخل عالم القصة السورية في عام ١٩٤٨ ، كما يرون ... ومن هنا منحوها تلك « القيمة النسبية » !

وأما الآخرون ، « فهي قصصهم تجسد واقعية مستهلكة ومواقف ميلودرامية مفتعلة » ، وحتى يحفظ رياض عصمت — صاحب هذا « القرار » — لنفسه خط الرجعة يضيف الى هذا ، عبارة يفتح بها ثغره تنجيه من ملامة هذا « التعميم الفاسد » فيقول : « لا تنجو منها سوى قصص قليلة ذكية » (ص ١١٢) .

على ان أعجب مانلاحظه ان تقييم الكتاب ، في بحوث العدد ، إنما كان يجري عبر تصنيفهم في « مذاهب » فنية ... وهكذا رفض كتاب بالجملة ، في حين « قبل النظر » في القليل القليل منهم ! وانها لنظرية في النقد لاتخلو من غرابة ! هذا الى ان « باحثينا » الثلاثة الطالعين « ولأسمح لنفسي بأن أستعير منهم اصطلاحاً مما استعملوا » : « انطباعيون » فهم يقرؤون آخر ما كتب في فن القصة القصيرة في الغرب ، بلغاته او مترجماً ، ثم « يتأثرون » بذلك الجديد الطالع من المذاهب والاراء ! غافلين عن بدهية أولية هي ان اي فن من الفنون ، او مذهب ، إنما هو وليد البيئة التي انبثق منها ، وتعميمه على البيئات الأخرى ، بجرة قلم ، لا يبرأ من قسر واعتساف .

ان من اطرف ما وقعت عليه في احد هذه « البحوث » اعجابا باهراً ببداية قصة لأحد قصصيينا ، وتلك هي :

« في اليوم الأول خلق الجوع . في اليوم الثاني خلقت الموسيقى . في اليوم الثالث خلقت الكتب والقطط . في اليوم الرابع خلقت السجائر . في اليوم الخامس خلقت المقاهي . في اليوم السادس خلق الغضب . في اليوم السابع خلقت العصافير واعشاشها المخبأة في الاشجار . وفي اليوم الثامن خلق المحققون ، وانحدروا تواً الى المدن وبرفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود الحديدية » .

يورد « الناقد » (رياض عصمت في الصفحة ١٣١) هذا النص ، ثم يهتف في عظيم حماسته : « أهو انجيل جديد يروي قصة الخليقة ؟ » ، « يروي عذابات الخليقة وأحلامها » !.. وأهتف — أنا — في عظيم استغرابي : يالَلأحكام كيف تكون ؟! وكيف تطلق ؟! وأضيف : ان ناقدنا المدقق عنى « التوراة » لا « الانجيل » ، فالتوراة هي التي روت ، في أحد أسفارها ، قصة الخليقة (سفر التكوين عينه) ، حين روى الانجيل قصة حياة السيد المسيح وعرض لمبادئه . والباحث عندما زل ، أترى ذلك من فرط اعجابه وانبهاره ، أم لجهالته بما قص الكتاب المقدس في عهديه : القديم والجديد ؟!

وانك لتراهم بعيدين عن فضيلة « التواضع » ، معتدين بذواتهم اعتداداً يفوق الوصف ... حتى أن أحدهم ليرى العديد من كتاب القصة ، الذين ناضلوا السنين في ممارستها « ناشئة » ، على حين ، يحسب ان له – هو نفسه – « رأس عملاق » ! يبدأ « بحثه » ، الذي تحدث فيه عن قصصين « م جميعاً قد بدأوا الكتابة قبل عام ١٩٦٠ » (ص ٩١) ، مستشهداً بنصيحة وجهها يوماً تولستوي « الى الناشئة من كتاب عصره تكاد تكون المؤشر الضوئي الأكثر فائدة للناقد من أي مؤشر آخر وسط المساحات الشاسعة التي تتناثر عليها آلاف القصص التي كتبت بأقلام عربية ، سواء في سورية أو في الأقطار العربية الاخرى » ... والنصيحة هي : « لابد من التريث .ان الكاتب يظن في بدايته أن له رأس عملاق ، غير انه لايملك الا يد طفل » (بدر الدين عرودكي ، ص ٦٤) !

وان من ديدن هؤلاء الباحثين : « التطويل » في « بحوثهم » التي وضعوها لهذا العدد الخاص (٢٩ صفحة + ٢٩ + ٥٠) ، حتى ان أحدهم قد أورد في « بحثه » بدون أي مبرر ، تسعة أسطر أو أبيات من قصيدة « للشاعر العظيم بيتس » ، منقولة الى العربية نقلاً رديئاً ، شغلت نصف صفحة من صفحات المجلة (خلدون الشمعة ص ٤١) ! لماذا ؟!

ومضياً الى هذه الغاية ، يعمد تالشمع الى ان«يلخص» في « مقدمة » بحثه كلاماطويلاً (استغرق الصفحات من ٩٣ – ١٠٣) اقتبسه كما أشار في الهامش – من مصدرين لأستاذه الدكتور غسان المالح ، أماليه ومقال نشر في مجلة « العربي » .

* * *

على أنني أرجو أن أقدم للقارىء ، فيما يلي ، نصوصاً أقتطفها من هذه«البحوث» فأفندها ... لنرى الى أي حد اتسم هذا النقد « بالدقة والموضوعية » ، أم أن مانصادفه هو الاعتباط في الحكم ، والخطل في الرأي ، والتدني في التعبير ؟! نصوص صغيرةمنها مايخص كاتب السطور ، ومنها مايخص أديب نحوي .

فأما مايخص كاتب السطور ، فنه هذه الفقرة « التامة » التي قالها « الناقد خلدون الشمعة » (ص ٥٦) :

« اذن فنحن ازاء البحث عن العلامات البارزة فحسب ، وبالتالي فان من غير الضروري التفكير بأن أسماء كفاضل السباعي وجان

ألكسان ، على سبيل التعداد ليس الحصر ، قد اسهمت في ايضاح معالم الصراع من أجل البحث عن أساس فني ضابط ، وان لم يكن لها فضل الاضافة المتميزة الى رصيد التقنية القصصية ».

قرأت هذه الفقرة مرتين ، فعسر علي استكناه معناها على وجه الدقة . فلجأت — حانئذ أفعل أمام القارىء — الى تبسيطها بتنقيتها من بعض نوافلها وحذف الجمل الاعتراضية التي لاتؤثر على المعنى الذي أراد الكاتب « التعبير » عنه ... فقرأت :

« ... ان من غير الضروري « التفكير » بأن ... هذه الأسماء قد أسهمت في ايضاح معالم الصراع من أجل البحث عن أساس فني ضابط ... » .

فاذا كان من غير الضروري « التفكير » بأن هذه الأسماء قد أسهمت في كذا... فلماذا يثقل « الناقد » على القراء بالتذكير بذلك ؟ أمن أجل أن يزري بنا ساعه الله . ويلاحظ أنه لاينفي عن هذه الأسماء انها « قد اسهمت في ايضاح معالم الصراع من أجل البحث عن أساس فني ضابط » ، هو لاينفي ، ولكنه يرى « أن من غير الضروري التفكير » بذلك ! ومن حق القراء ان يتساءلوا ، وهم في مواجهة هذا الرأي ، عن السبب ، أي كيف تأتى الناقد أن يرى « انه من غير الضروري التفكير بأن هذه الأسماء قد أسهمت ... الخ » ؟ ثم يكون لهم ان يتوقعوا تسويغ الرأي في الجملة التالية ولكن توقعهم يخيب ، فليس هناك من مسوغ ، بل جملة اضافية تنفي « النفي » — إن صح التعبير — الذي ورد في الجملة السابقة : « وان لم يكن لها (اي لهذه الاسماء) فضل الاضافة المتميزة الى رصيد التقنية القصصية » !!

وهكذا يضيع القارىء ، بعد الجهد ، في خضم كلمات مطاطة وألفاظ مائعة وشعارات لاطائل وراءها . البحث عن العلامات البارزة ! ايضاح معالم الصراع ! من أجل البحث عن أساس فني ضابط ! فضل الاضافة المتميزة ! رصيد التقنية القصصية !!

ويقول « الناقد رياض عصمت » (ص ١٢٣) :

« إن قصص محمد النجار ، وفاضل السباعي ، وألفة الادلبي قصص من نشوة الماضي ... قصص من عصر أدى ماعليه وبدأ يتحول الى ذكريات مندثرة ، لأنه يعبر عن جيل يمثله عمراً لم يعد يملك أن

بتقدم المزيد في المضمون أو في الشكل ، لا لشيء إلا لأنه عجز عن التجدد والتطور وتعميق البعد الفكري والانساني » .

انه لمن الطريف أن يحسب الناقد اني من جيل المرحوم محمد النجار (وهو من مواليد أواخر القرن الماضي ، كما سمعت) ومن جيل السيدة الفاضلة ألفة الادلبي أمد الله في حياتها . ومن الغريب ان يحسب - أيضاً - أن قصصي هي « من نشوة الماضي » ، وقد عرف هذا الضرب من القصص ، بأنه « قصص تصويرية تحمل ذكريات من نشوة الماضي ، وقصص القدر والخرافة » ، وفيها « اعتماد كبير على فلسفة الحظ والقدر » ، وهي « تحوي قدراً كبيراً من الحوادث العاطفية والاجتماعية والخرافية . وهي أشبه ما (يكون) بالتراث القصصي القديم ، النوادر والمقامات » و « يتضمن بعضهـا (عن) ألاعيب وخدع تذكرنا بألاعيب أهل الكدية » (ص ١٠٨) !!!

وما كتبته من قصص هو على النحو الذي وصف السيد عصمت الذي يعود فيقول عن « مدرستنا » المزعومة : انها « مدرسة في طور الافول لا أدري لماذا تصر بعض بعض المؤسسات الصحفية التي تدعي اهتمامها بالتراث العربي على الترويج لها ! » (ص ١٢٣) .

ولا بأس ، في سبيل التدليل على « قدرة » هذا « الكاتب » على البيان ، ان نتساءل بإزاء هذا النص المتعثر لغوياً (وهي أشبه ما يكون ! يتضمن بعضها عن ألاعيب !) ، فنستعيد مجمل عبارته : « ان قصص الثلاثة ... قصص من عصر أدى ما عليه وبدأ يتحول الى ذكريات مندثرة لأنه ... » (الهاء في « لأنه » عائدة الى « العصر » الذي أدى ما عليه ، لأنه ليس في الجملة من لفظ مذكر سواه !) « لأنه يعبر عن جيل يمالئه عمراً » ! انتبه : العصر يعبر عن جيل يمالئه عمرا !! وقد كان أولى بهذا الكاتب ، ان يمضي ، انسجاماً مع نفسه ، فيقول : « لأن هؤلاء الكتاب يعبرون عن جيلهم الذي لم يعد يملك أن ... » ، مثلا !

* * *

فأما ما يخص اديب نحوي ... فقد بدا ان « الناقد » بدرالدين عرودكي ، الذي اخذ على نفسه ان يتحدث عن « ابرز » كتاب « القصة المعاصرة في سورية » ، لم يفرغ لقراءة نتاج اديب نحوي . ولما لم يكن بد من ان يتحدث عنه - ذلك ان مؤسسات الاعلام السورية قطنت « اخيراً » الى براعة هذا القاص فأخذت تثني عليه الثناء المستطاب فليخطف عرودكي رأياً مما يقال في اديب هنا ورأياً من هناك ، مضيفاً الى ذلك شيئاً من

« عموميات » مكرورة ... فاذا « الكلام » يستغرق صفحة من « بحثه » (من اصل ٢٦ صفحة) ... قال (ص ٨٧) :

« لقد انصبت هـــذه المحاولة (يقصد محاولة اديب نحوي) على تسجيل يكاد يكون وثائقياً للحياة الشعبية في مدينة حلب ، تلك التي تلتقي في كثير من تفاصيلها الحسية والمادية مع الحياة الشعبية في المدن السورية الأخرى . ولكن اسلوب هذه القصص الخطابي والتقريري في (مجموعته) « متى يعود المطر » كان يسيء كثيراً الى المادة الغنية المثيرة التي تحفل بها تجربة اديب النحوي الشعبية » .

ان ما يفضح عدم اطلاع الناقد على « متى يعود المطر » ، انه يحسبها « مجموعـــة قصصية » ، في حين انها « قصة مطولة » منشورة وحدها في كتاب ? ولا يحسبن القارىء أنها « زلة قلم » من الناقد ، فالفقرة التي تلي تسمي كتاب نحوي التالي : « مجموعته الثانية » !

« غير ان تطور هـــذا الاسلوب في مجموعته الثانية « حتى يبقى العشب أخضر » ، وفي الأقاصيص التي تلت هذه المجموعة ، وبشكل خاص قصته « عرس فلسطيني » يكاد يجعل من هذا الكاتب ، الوحيد ، بين كتاب القصة في سورية الذين يجد المرء في قصصهم صورة الواقع المحلي ، بكل تقاليده واخلاقه وهمومه ومشكلاته الصغيرة والكبيرة على السواء » .

والواقع ان « الناقد » ، هنا ، لم يقل شيئاً قط . فهو لم يحدثنا عن ملامح اديب نحوي في مجموعته « الثانيـــة » ولا في مجموعته التي تلت « حكايا للحزن » ... لانه لم يتفرغ ، في دراسته المطولة ، لقراءة اديب نحوي الذي كتب في الستينـــات وما يزال اعذب القصص الشعبية الانسانية السورية على الاطلاق ، هو وحسيب كيالي . وقد عمد عرودكي ، بغية تغطية ضحالة معلوماته ، الى طرح « كليشيهات » جاهزة : « الذين يجد المرء في قصصهم صورة الواقع المحلي ، بكل تقاليده واخلاقه وهمومه ومشكلاته الصغيرة والكبيرة على السواء » !

« لاشك أن « عرس فلسطيني » ، تشكل الذروة في انتاج هـــذا الكاتب ، لا من حيث البناء القصصي فحسب وانمـــا من حيث توظيف هـــذه المادة الغنية في عمل قصصي ، وحين اقول الحياة الشعبية ... » .

وهنا اميل الى الظن بأن الناقد قد قرأ : « عرس فلسطيني » ، تلك القصة التي اصابت حظاً من الشهرة كبيراً : لمضمونها الوطني الصادق ، ولأن وزارة الثقافة (المؤسسة العامة للسينما) قد اشترت حق اخراجها سينمائياً . ولكنه لايتحدث عن هذه القصة حديث العارف بها المحلل لها ، بل هو يطرح ، بدلا من ذلك ، جملة من «الشعارات» المكرورة . استمع اليه :

« وحين اقول الحياة الشعبية فلست اعني بها تلك التي تقتصر على احياء المدن السورية الشعبية ، فالحق ان لهذه التقاليد والاخلاق جذوراً في الحياة العربية كلها ، لافرق في ذلك بين العراقي او السوري او المصري او الجزائري . فقد تكونت شيئاً فشيئاً وترسخت كأعراف مع العصور الاسلامية الاولى ، وحتى عصر الانحطاط ، وصولا الى وقتنا الراهن » .

أترى الناقد أثرى ، في ذلك ، قارئه بتحليل مستطرف لقصة أديب نحوي ؟ أم أنه سد فراغاً في الصفحة بسرد هذه « المسلمات » ؟

« ولذلك ، فان قصة أديب نحوي بهذا المعيار نحوي من خصائص البيئة المحلية ، ايمكن ان يميزها عن سائر القصص القصيرة التي يكتبها الكتاب في سورية . ولكن لم تفز الحق وقت قريب بتقنيتها الفنية الخاصة بها ، فانها مع قصة « عرس فلسطيني » تبشر بميلاد قصة ذات شكل متميز ، تحمل خصائص البيئة المحلية الشعبية العربية شكلاً ومضموناً » .

إننا في « العموميات » ... مانزال !!

« غير أن هذه التقنية تواجه على كل حال مشكلة اللغة القصصية . فالنحوي يكتب باللهجة الشعبية المحلية . ولا يقتصر ذلك على حوار قصصه ، بل يتعداه الى السرد القصصي أيضاً » .

وهنا خطأ فاضح . أن أديب نحوي لا « يكتب باللهجة الشعبيه المحلية » ، حواره او السرد ولكنه يكتبها باللغة العربية ، ليس بالعربية الفصحى ، بل « بالفصيحة » البسيطة . التي كثيراً ماتستعير « تراكيب » لغوية مما يجري على ألسنة « العـامة » ، ولكنها نادراً ماتتعارض مع العربية الفصحى . وذلك من أبرع مايؤديه قاص قد خالط

الطبقة الشعبية فسبر غورها واستشف روحها واستوعب « لغتها » الخاصة بها فصعد بها الى مستوى التعبير الفصيح الفني . واذا سمح أديب لنفسه بان يستخدم بعض الالفاظ العامية التي تحمل في طياتها شحنة من المعنى الذي يضيع « بالترجمة » الى العربية « الفصحى » فانما يكون ذلك بقدر يسير وعلى مقتضى الحاجة الفنية التي يستوجبها الحرص على اتقان رسم شخوص القصة الشعبيين .

فكيف جاز لناقدنا أن يزعم أن أديب نحوي « يكتب باللهجة الشعبية المحلية » ؟ فهو ، في هذا ، قد وضعه في مصاف بعض كتاب القصة من المصريين والعراقيين الذين اخذوا على عواتقهم الا يديروا حوارهم الا بلهجاتهم المحلية المحكية ، مصرية او عراقية . وهذا مايبرأ منه أدب أديب نحوي دون جدال .

« إن تحويل هذه اللهجة (يقصد اللهجة الشعبية المحلية المزعومة في أدب نحوي) الى لغة عربية سليمة قد يفقد القصة مذاقها الخاص ... » .

بل ان استبدال « لغة » أديب نحوي الخاصة (وليس « تحويل لهجته الشعبية المحلية » !) الى لغة عربية فصحى (لا « لغة عربية سليمة » !) يفقد (وليس « قد يفقد ») قصصه مذاقها الخاص ، لاشك في ذلك . فلغة أديب ، المتدفقة بالحياة ، مفصلة على قد شخوص قصصه لايمكن أن تستبدل بها لغة سواها أبداً !.

« والاستمرار في استخدامها (أي مازعمه الناقد من لهجة أديب الشعبية المحلية) انما يحد من آفاقها في النطاق العربي على الأقل » .

وهذه نتيجة خاطئة مردها الى « مقدمة » خاطئة ، وهي الظن بأن لغة أديب ان هي إلا « لهجة شعبية محلية » ، أي «عامية!» بينما هي لغة عربية صحيحة يفهمها كل عربي في كل قطر ، بيسر او بقليل من الجهد الذي يقود الى تذوق تراكيب لغوية تبعث النشوة بسبب ماتبدعه من رسم ملامح شخوصها المنتمين الى الطبقة الشعبية في سورية . ولا أرى أي معنى لاضافة تعبير « على الاقل » الى نهاية العبارة . وهل يريد الناقد أن يستبعد ماقد يظنه القارىء من ان هذه القصص « تحد آفاقها » في النطاق الغربي اوالروسي او الامريكي ؟! عجباً ، كيف يلقى بالكلمات جزافاً !

ويختم الناقد مقاله في أديب نحوي بقوله :

« تلك مفارقة لابد من تجاوزها وحلها عن طريق تقنية مناسبة

لاتسيء الى الجو القصصي الخاص الذي تسم اللهجة الشعبية في ايجاده ، ولاتسيء الى بناء القصة اللغوي — كعمل أدبي — الذي تسهم به أيضاً تلك اللهجة » .

وأما « المفارقة » — وأحسب أن الناقد يريد أن يقول :« المشكلة ، او المعضلة » فليست في غير خياله ! وأما عبارة « بناء القصة اللغوي كعمل أدبي » ، فلم استطع تبين المقصود منها على وجه الدقة ، فهي من اصطلاح نقاد حرصوا على أن يغشوا أبصـــار القراء والقصصيين على حد سواء !

* * *

ويحنني ، قبل ان اضع القلم من يدي ، أن انوه بالمجهود الطيب الذي بذل في اعداد ماسمي بـ « ثبت بالروايات والمجموعات القصصية السورية التي نشرت في السنوات الاربعين الأخيرة » ، الذي اسهم في اعداده كل من حسام الخطيب ونواف ابو الهيجاء. واذا كان علي ان اغفر لهما هفوات وقعا فيها لدى اعدادهما الثبت ، كالقصور في التحقق من صحة اسماء بعض الكتاب والكتب والخطأ في ضبط اعوام وامكنة النشر واغفال اسماء كتاب وكتب ، فذلك ما ينبغي ان نتوقعه في اعداد مثل هذا العمـــل غير المسبوق . إلا ان ثمة اخطاء لاتغتفر :

كأن تحسب القاصـــة العراقية « ديزي الأمير » من بين الكتاب القصة السوريين ! .

أو يحسب منهم « الدكتور نجيب الكيلاني » ، الروائي المصري المعروف ، الذي تقرر تدريس روايته « الطريق الطويل » في احد صفوف الثانوي في إقليمي الجمهورية العربية المتحدة اعوام الوحدة !..

وكيف تأتى للمعدين ان يجهلا من يكون المرحوم « محمد طاهر لاشين » ، احد الرواد الأوائل للقصة المصـــرية القصيرة ، حتى حسباه من القصصيين السوريين غير المعروفين فأوردا في الثبت اسمه !..

ملاحظات وتصحيح للثبت الخاص بالقصة السورية

أسهم السيدان الدكتور حسام الخطيب ونواف ابو الهيجاء في اعداد الثبت الخاص بالقصة السورية كما أشرنا الى ذلك في العدد الماضي . وقد نوها في نهايته بأن الثبت لاشك ناقص وأن المعرفة ترحب بأي تصحيح او اضافة له . وقد وصلتنا التصحيحات التالية من الاستاذ هاشم عثمان من مدينة اللاذقية السورية ونحن ننشرها شاكرين له اهتمامه . كما نعد بنشر أية اضافة أو تصحيح يردنا في المستقبل حول هذا الموضوع .

« المعرفة »

١ - لجورج سالم	غير ماذكر في الثبت	
	رواية في المنفى	بيروت ؟
ولمواد السباعي	الحكايةذاتها	منشوراتوزارةالثقافة دمشق ١٩٦٧
ولعبد الله الشيتي	القديسة العاربة	دمشق ١٩٦٧
ولوداد سكاكيني	نفوس تتكلم	القاهرة ١٩٦٢
ولحسيب كيالي	اجراس البنفسج الصغيرة	بيروت ١٩٧٠
ولمحمد المجذوب	فارس غرناطة	اللاذقية
	مدينة التماثيل	بيروت
	ثورة الحرية	بيروت
	قاهر الصحراء	بيروت
	قصص من الصميم	بيروت

ولم يصل الى علمي ان له قصة بعنوان « الهاربة »

ولمحمد حاج حسين	الجوع لايرحم
	ملكة الجمال
	نائب الشعب
ولصباح محي الدين	العائد
	السمفونية الناقصة
	اليوم الموعود
	بنت الجيران
ولنبيل كرامة	عهد الهوى
	إبن حرام